الألوكة
www.alukah.net

شبهات معاصرة
حول
المصادر الأساسية للتشريع الإسلامي

د. محمد رفعت زنجير

بسم الله الرحمن الرحيم

والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى التابعين له بإحسان إلى يوم الدين. وبعد: يتعرض الدين الحنيف في هذا العصر إلى شبهات كثيرة تثار حول مصادره الأساسية باسم التجديد والتطوير، والتجديد من سمات الدين الحي، وقد جدد الله في الرسالات والأنبياء مراعاة لحال البشرية التي كانت تنمو وتتطور، فيجدد لها الشرائع بما يقتضي نموها وتطورها، فلما بلغت رشدها وكمالها في عهد محمد صلى الله عليه وسلم، جاءت الرسالة الخاتمة بشريعة بيضاء كالشمس، لا تبدل ولا تلغى، ولا تحرف، ولا تنسخ، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

ولما كان الأنبياء فيما مضى يقومون بدور الدعوة إلى شرائع الرسل التي لم تنسخ في أزمانهم، كانت مهمة العلماء في هذه الأمة الدعوة إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، لذا فدورهم كدور الأنبياء فيما مضى، ولذلك كان العلماء ورثة الأنبياء.

وإذا كان التجديد قد توقف في الشرائع والأحكام ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه لم يتوقف من حيث وجود الرجال المخلصين، الذين يقودون الناس إلى منهج النبوة، ويردونهم إلى الصواب، ويصلحون ما أفسد الناس من بدع، وما تركوه من سنن، لذا اقتضت حكمة الله أن يرسل كل مئة عام من يجدد دين هذه الأمة. فوظيفة المجدد هي التذكير بالعهد الأول، وإزاحة البدع والتراكمات التاريخية عن منهج النبوة، وتحبيب هذا المنهج للناس، وتقريبه إليهم وتقريبهم له، حتى يصبح هنالك اتحاد بين الدعوة والمؤمنين بها، ولا تبقى مجرد حبر على ورق لا صلة له بواقع الناس ومجرى حياتهم.

فالتجديد في الدين مطلوب كما ذكرت، ولكن له أسسه ووسائله، وشروطه وآدابه، وأهله ورجاله، فلا بد من احترام المرجعيات الدينية وأصحاب التخصص، فكما لا يصح لأي إنسان أن يدلي بدلوه في الطب والهندسة إلا إذا كان مختصا، فكذلك الأمر بالنسبة للدين، فهنالك علوم لا بد من الإلمام بها قبل التعاطي مع التفسير أو الحديث أو الفقه وغير ذلك من العلوم الدينية.

وقد تعرض للكتابة في الأمور الدينية والفكر الإسلامي نفر من الكتاب لم يتخصصوا بالدراسات الإسلامية، وأثاروا الشبهات حول مصادر التشريع الإسلامي باسم التجديد كما ذكرت آنفا، ولم يتعرفوا على مناهج العلوم الإسلامية، بل انبهروا بالمناهج الغربية، والعلوم المادية، والحضارة المعاصرة، فأرادوا أن يجددوا في الفكر الإسلامي دون امتلاك أدواته من رصيد معرفي كبير بالتراث الإسلامي، والتاريخ العربي الإسلامي، ومصادر هذا الدين، وكيفية التعامل معه بيسر وسهولة، ومعرفة قدرات هذه الأمة وركائزها الفكرية والمعرفية والنفسية والاجتماعية، وظنوا أنهم بمجرد إلقاء التهم الجزاف للتراث الإسلامي والعلماء المسلمين، وبمجرد عرض شبهاتهم الجديدة البراقة الملتفة بدعاوى المنهجية العلمية والحرية الفكرية ستتبعهم الأمة، وستعكف على ما يقولونه، وتنصرف عن أهل العلم المتخصصين، ورجالاته المخلصين، ألسنا في عصر الموضة والأزياء الجديدة والعولمة والحداثة واكتشاف الفضاء.. إلخ؟، وقد نسي هؤلاء أن دون ذلك خرط القتاد، فكم حاول مَن قبلهم ذلك ولم يفلحوا؟! فإن الله تعهد بحفظ دينه، من الغلو والتحريف والتبديل والتغيير، وظنوا انهم بإلقاء هذه الشبهات التي ألبسوها مسوح الفكر والتجديد سيكون لهم من المركز الاجتماعي ما كان لعلماء النهضة في أوروبا، الذين خلصوها من ليل العصور الوسطى، وقادوها إلى التقدم والعمران، بيد أن الأمر مختلف تماما، فنحن أمة لا تحارب الفكر، ولا تزدري المعرفة، بل هي تمجد العلم والمعرفة، وتاريخنا العلمي خير دليل على هذا، والحرية الفكرية في ديننا لا حدود لها، ولذلك استوعب الإسلام من تعدد الفرق والمذاهب والتيارات تحت لوائه ما لم يستوعبه دين آخر، وهذه ظاهرة صحية طيبة في حياة أمتنا الثقافية، وعليه فليس لدينا ليل كالليل الذي عانت منه أوروبا ينبغي أن ننهض منه، ونحن لا نخشى من الأفكار الجديدة، لأننا واثقون بديننا، وتراثنا، وعلومنا، وتاريخنا، ومستعدون لأن نتقبل النصح، ونتعامل بالحوار، ونستمع إلى الرأي الآخر إذا كان سليما معافى، وليس شنشنة واجترارا لأفكار المستشرقين والملحدين، ونعتقد أن مصير كل

دعوة مناهضة للأسس والثوابت التي قام عليها بناء هذه الأمة هو الموت أو الانتحار، وصدق الله القائل: (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)1.

وقد ظن بعض الباحثين الجدد أن لا بد من تشذيب الإسلام، وتهذيبه، وعقلنته، وتطويره ليوافق كل الأهواء والرغبات الإنسانية، ولكي يتلاءم مع عصر العولمة والألفية الثالثة. فجاؤوا بفكر استشراقي محدث فارغ المحتوى، وأشاعوا أن القرآن يختلف عن الكتاب، بحجة أن المصطلحين غير مترادفين، ولا مكان للسنة عند بعضهم، فهي من صنع اليهود وأعوان السلطان، ورفضوا الإجماع والقياس، وأثاروا الشبهات حول الفقه الإسلامي والأحكام الشرعية، ظانين أن هذا هو التجديد، وإنما هم ينقضون عرى التشريع الإسلامي عروة عروة.

ولأن النصح لأئمة المسلمين وعامتهم من أسس ديننا الحنيف، ولذلك أخذت نفسي بالعزيمة، وبدأت في كتابة هذا البحث، وأنا هنا لا أحاكم أشخاصا، وإنما أناقش أفكارا، ولذلك لم أذكر أسماء الكتاب في المتن، واكتفيت بالإشارة إليها مع أسماء الكتب في الهوامش، ونود أن نبين الحق، وندرك أن الأمة ليست عمياء، وهي تستطيع أن تدرك الحق بفطرتها السليمة، كما تستطيع أن تدركه بالبحث والتجريب، فليست بحاجة إلى وصاية من أحد، ولا يستطيع أن يضللها أحد بالنهاية، والله الموفق.

---

1 – سورة الرعد، الآية (17).

الموقف من مصادر الشريعة الإسلامية:

تمهـــــــــــيد:

يرى أحد المعنيين بالفكر الإسلامي المعاصر أن أدلة أصول الأحكام الأربعة: القرآن، والسنة، والإجماع، والقياس، قد سيطرت على الفكر الإسلامي، يقول: (وقد كانت هذه قطعة أكاديمية تدرس في المعاهد المتخصصة، حتى جاءت أزمة الدعوة الإسلامية فعممتها بين الجمهور، بحيث لم تعد مجرد قاعدة في أصول الفقه، ولكن قاعدة للفكر الإسلامي، لأن الفقه الإسلامي يشمل مجالات الحياة).[2]

ويرى أيضا أن لهذا المنهج أصله التاريخي والمبدئي، ولكن هذا لا ينفي قصوره، يقول: (على أن انتفاء الخطأ في المنهج إذا طبق تطبيقا سليما لا ينفي وجود قصور عن التوائم مع تطور الأوضاع السياسية والاقتصادية، وهو قصور لم يظهر أيام الرسول، ولا أيام الخلفاء، لما أشرنا إليه من وحدة الزمان والمكان، واختلاف الأوضاع).[3]

وهذا كلام عام لا تؤيده الحجة والبرهان حتى الآن، ويمضي الكاتب قائلا: (ولا يقل عن هذا أهمية أن المنهج قلما طبق تطبيقا سليما، لأن العودة إلى القرآن اكتنفتها تأويلات وتفسيرات مجافية للقرآن، بحيث أن المسلمين عندما أخذوا بها بفكرة أن هذا هو القرآن، فإنهم بحقيقة الحال أخذوا بشيء آخر غير القرآن، بل مما يجافي القرآن).[4]

وهذا أيضا حكم عام غير مدعم بالأمثلة، ويعوزه الدليل والبرهان العلمي، لأن كل دعوى بلا برهان هي مرفوضة منهجيا وعلميا.

---

[2] – ما بعد الإخوان، جمال البنا، ص (107).

[3] – ما بعد الإخوان، جمال البنا، ص (108-109).

[4] – ما بعد الإخوان، جمال البنا، ص (109).

وسوف نستعرض شبهات الكتاب تجاه مصادر الشريعة الإسلامية بالتفصيل.

المبحث الأول:

الموقف من القرآن الكريم وعلومه

أولا: مقدمة:

يرى أحدهم أنه لا بد من البحث والتنقيب في القرآن الكريم، وتجاوز منهج الصحابة الذي يقف مع بعض آيات القرآن موقف التفويض، يقول: (فإذا سألني سائل الآن: ألا يسعك ما وسع الصحابة في فهم الكتاب والقرآن؟ فجوابي بكل جرأة ويقين هو: كلا. لا يسعني ما وسعهم، لأن أرضيتي العلمية تختلف عن أرضيتهم، ومناهج البحث العلمي عندي تختلف عنهم، وأعيش في عصر مختلف تماما عن عصرهم، والتحديات التي أواجهها تختلف عن تحدياتهم. إنني أواجه فلسفات قوية ومنيعة، دخلت عقر داري، وأواجه تقدما علميا يؤثر على كل حركة وكل قرار أتخذه في حياتي، وأكون متوهما إذا قلت أو قبلت أنه يسعني ما وسعهم)[5].

والحقيقة أن الصحابة رضي الله عنهم لم يقفوا موقف التفويض إلا بآيات الصفات والمتشابهات، ولكنهم فيما عدا ذلك فقد فسروا القرآن للناس، وتفسير الطبري، وكتاب الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي حافلان بذلك، وموقفهم في عدم تأويل آيات الصفات هو موقف سليم، فمن ذا يستطيع أن يتكلم عن الذات الإلهية والله سبحانه (ليس كمثله شيء)[6]، ولا يحيط به شيء؟!

ويؤكد الكاتب على أن التأويلات الجديدة التي أتى بها ليست نهائية ولا هي بملزمة للأجيال القادمة، يقول: (علينا أن لا ننسى أن التأويلات التي نؤولها في عهدنا قابلة للتطوير أو النقض على مر السنين، لأن تأويلات عصرنا تقوم على أساس نسبـــية معرفتنا للحقيقة، وهذا هو أهم بند علينا أن لا ننساه وعلينا أن نؤكد عليه للأجيال القادمة لكي لا تتحجر ولا تتزمت، ولكي تكون روح المنهج العلمي في البحث عن الحقيقة هي المهيمنة على أجيالنا المقبلة)[7].

---

[5] – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (567).

[6] – سورة الشورى، الآية (11).

[7] – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص(502)

وهذا كلام غير علمي، إذا كانت هذه التأويلات قابلة للتطوير أو النقض فمعناها أنها لا ترتكز إلى قواعد منهجية ثابتة، لأن المنهج الصحيح يعطي نتائج صحيحة، فهي لا تعدو أن تكون ظنونا لتأويل النص، أو لبيان المراد منه، والظن لا يغني عن الحق شيئا.

ويؤكد الكاتب أن طبيعة الإسلام (دين الحنيفية) هو التطور والتغير لملاءمة أوضاع الناس وأحوالهم، يقول: (إن الإسلام دين الفطرة، وهو دين الحنيفية المتغيرة حسب الزمان والمكان، وحسب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وهو متطابق تماما مع فطرة الناس والتي تحمل تشابها كبيرا مع قوانين الطبيعة).[8]

وهذا الكلام فيه خلط عجيب، لأن تغير الحنيفية المتوافقة مع الفطرة، يستلزم تغير الفطرة، ومن قال إن الفطرة متغيرة؟ إن الله فطر النفس الإنسانية على الخير والشر معا (ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها)[9]، وفطره على حب الشهوات (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث)[10]، وفطره على حب الخير أيضا (وإنه لحب الخير لشديد)[11]، والإنسان هو الإنسان منذ عهد آدم حتى قيام الساعة، إما أن يعيش لهواه وذاته وأهوائه، أو أن يعيش لدين الله الذي خلقه الله من أجله. ونضرب مثلا لذلك بقوم لوط عليه السلام، فالفطرة السليمة تقتضي أن تكون العلاقة الجنسية بين الزوجين: الذكر والأنثى، فحين تجاوزوا حدود الفطرة، ونشأ عندهم ما يسمى اليوم بالمثلية، عاقبهم الله أشد العقاب، فالفطرة لا تتغير، ولا ينبغي لها أن تتغير، ومن هنا قالوا: لا جديد تحت الشمس.

والحنيفية أيضا لا تتغير ولا تتطور، لأن التغير معناه فقد الخصائص الأولى، فحين تتحول الخمر إلى خل، لا يمكن بيعها على أنها خمر، وكذلك حين يتحول أي مبدأ إلى مبدأ آخر لا يمكن القول إن المبدأ الجديد هو المبدأ القديم، لأن الجديد ممكن أن يتحول إلى مبدأ ثالث، والثالث إلى رابع وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية، فلا يلزم أن تكون المبادئ التي تحولت وتغيرت هي عين المبدأ الأول، لأنها لو

---

[8] – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص(575)

[9] – سورة الشمس، الآيتان (7-8).

[10] – سورة آل عمران، الآية (14).

[11] – سورة العاديات، الآية (8).

كانت هي عينه لقلنا إذا هذا المبدأ لم يتطور، وإذا كانت غيره فهذا يعني نهاية المبدأ الأول. فلا يعقل أن يتغير الشيء ويبقى هو كحاله قبل التغيير، فهذا محال، فإذا قلنا إن الحنيفية تتبدل فهذا يعني أن الصورة التي تبدلت إليها الحنيفية ليست هي الصورة الأولى التي كان عليها إبراهيم عليه السلام، وبإمكانك أن تسميها ما شئت إلا أن تطلق عليها لفظ الحنيفية فهذا محال.

ويضيف الكاتب بأن العرب لم يهتموا بفهم القرآن، بل هجروه، لعدم توفر أدوات البحث العلمي لديهم، ويستوي في الهجران الكافرون وأكابر الصحابة كالخلفاء الراشدين على حد سواء، يقول: (لقد اهتم العرب بفهم الرسالة اهتماما شديدا، وأعطوها كل وقتهم وجهدهم، وجاهدوا في نشرها بين الأمم، ولكنهم لم يهتموا بفهم القرآن، لأن القرآن بحاجة إلى تفرغ ووضع حضاري معين وبحث علمي، لذا قال تعالى: (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث) الإسراء/106، قال: (على الناس) و لم يقل على الذين اتقوا، فكلما زادت معاهد البحث العلمي وزاد عدد المتفرغين لهذا البحث، وزاد عدد الاختصاصات زاد فهم الناس للقرآن، هذه الشروط لم تكن متوفرة في عهد النبـــي صلى الله عليه وسلم، وهذه الظاهرة وردت في سورة الفرقان بقوله: (وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) الفرقان/30، فقوم الرسول هم العرب، كل العرب، لاحظ قوله (إن قومي) إذ لم يقل: إن الذين كفروا من قومي، ولو عنى المسلمين لقال أمتي، لأن العرب قومه والمسلمون أمته، هذه الآية تنطبق على العرب جميعا بما فيهم الصحابة والخلفاء الراشدين من أبي بكر الصديق إلى علي بن أبي طالب).[12]

إن اتهام أكابر الصحابة بعدم فهم القرآن وهجرانه، وجعلهم مع الكافرين في مستوى واحد، هو اتهام باطل من وجوه كثيرة، نذكر منها:

1- إن القرآن نزل بلغتهم، وكانوا أكثر علما باللغة منا، ولذلك حولوه مباشرة إلى عمل، وليس إلى جدل، وعاشوه لحظة بلحظة، وقد شهد القرآن بفضلهم وعلمهم في مواضع كثيرة.

[12] – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص(129).

2- والقرآن كتاب هداية وهو موجه من الله إلى خلقه على اختلاف مستوياتهم العلمية، فلا يعقل أن يكون العلماء هم الذين يفهمونه والعامة لا تفهمه وتهجره، وإلا لكان كتاب طلاسم وليس كتاب هداية للناس جميعا.

3- كيف يفهم العرب الرسالة ولا يفهمون القرآن؟ فهل الرسالة شيء خارج عن القرآن؟ أم القرآن شيء خارج عن الرسالة؟.

4- إن لفظ (قومي) الذي يتذرع به الكاتب هو من باب إطلاق العام وإرادة الخاص، أي الذين كفروا من قومي اتخذوا القرآن مهجورا، وهذا معروف في أساليب اللغة، نقول حضر الطلاب أي جلهم، وغاب الطلاب أي بعضهم، وقد قال القرآن في آية أخرى: (وكذب به قومك وهو الحق)[13]فهل كذب بالقرآن أكابر الصحابة أم هم أول من صدق به، حتى نعت أحدهم بالصديق، فالمقصود هنا بعض قومك كذبوا بالقرآن وليس كلهم، والكاتب يدعي بأنه سيستخدم المنهج اللغوي في التفسير، فكيف فاته معرفة قاعدة بسيطة في البلاغة العربية؟.

5- هل يعقل أن يترل الله كتابا من السماء، على قوم لا يفقهونه لأنه ليس لديهم أدوات البحث العلمي؟ كان الأولى إذا إما أن يترله في بيئة علمية أو ينتظر حتى تتطور العلوم ومناهج البحث فيترله، لأن صنيعه في هذه الحالة ينافي الحكمة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وقد توصل الكاتب إلى نتيجة خطيرة وهي التفريق بين لفظ الكتاب والقرآن، وقد عبر عنها زميل الكاتب بقوله: (قد يصاب القارئ بصدمة عند وصوله إلى النتيجة المعروضة في باب الذكر، والتي تقول بعدم ترادف القرآن والكتاب، ووجود فرق بينهما، لأن هذه النتيجة تهدم التصور السائد في فهم الإسلام القائم على ترادف القرآن والكتاب. وبعد قبول النتيجة قد يصاب القارئ بحيرة، لأن قبول هذه النتيجة يستوجب بالضرورة تقديم تصور جديد في فهم الإسلام قائم على تباين القرآن والكتاب. وقد أدرك الدكتور شحرور ذلك، فلم يترك القارئ في حيرته بعد الصدمة، بل قدم له التصور الجديد الذي يقترحه في فهم الإسلام)[14].

---

[13] – سورة الأنعام، الآية (66).

[14] – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، من مقدمة د. جعفر دك الباب، ص(26).

لقد أوجد الكاتب المشكلة، ثم تكرم على المسلمين بالحل لها، وابتداء يمكن التأكيد بأنه لم يقل أحد من العلماء بأن دلالة لفظ (كتب) و(قرأ) واحدة، وبالتالي دلالة لفظ: الكتاب والقرآن ليست واحدة، فالكتاب تدل على أنه قراطيس مكتوب فيها، ولفظ القرآن يدل على القراءة، وقد يقرأ الإنسان من دون أن يكون أمامه كتاب، مثل قراء القرآن الكريم، وقد يكتب دون أن يقرأ ما يكتبه، فإذا دلالة اللفظين ليست واحدة من حيث اللغة. ولكنهما قد يدلان على شيء واحد إذا سمي بهما هذا الشيء، فما أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من الوحي هو كتاب بمعنى أنه مكتوب، وهو قرآن بمعنى أنه مقروء، فيجوز أن يطلق عليه أي واحد من الاسمين، وكلاهما تعبير عن مسمى واحد وهو ما أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم بين دفتي المصحف، وليس معنى هذا أن الله أنزل شيئا اسمه الكتاب، وشيئا آخر اسمه القرآن، فهذا غير صحيح، ولتتضح الصورة نضرب مثلا بقول الله تعالى: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى)15، فإن لفظ الله غير مرادف من حيث دلالته اللغوية للفظ الرحمن، وإلا كان تكرارا لا طائل من ورائه، ولكن اللفظين هما لمسمى واحد وهو الذات الإلهية العظمى. ولو فهمنا أن هناك ذات إلهية تدعى بالرحمن غير الذات الإلهية التي تدعى بالله، لكان هذا مطابقا لفهم المشركين، ولذلك عندما يقال عن الأسماء الحسنى أنها مترادفة فهي من حيث دلالتها على مسمى واحد، لا من حيث معانيها اللغوية. وكذلك الأمر بالنسبة للفظ الكتاب والقرآن فهما مترادفان من حيث دلالتهما على ما أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم، وليس من حيث المدلول اللغوي. وأكثر العلماء قد أقروا بالترادف، وأنكر الفخر الرازي على منكري الترادف، وقال: (وتعسفات الاشتقاقيين لا يشهد لها شبهة فضلا عن حجة)16. وقد وفق الشيخ عز الدين بين رأي المنكرين والمقرين بالترادف في نحو السيف والمهند والصارم، فقال: (من جعلها مترادفة ينظر إلى اتحاد دلالتها على الذات، ومن يمنع ينظر إلى اختصاص بعضها بمزيد معنى، فهي تشبه المترادفة في الذات والمتباينة في الصفات)17.

---

15 – سورة الإسراء، الآية (110).

16 – المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، (403/1).

17 – المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، (405/1).

ولأن المسلمين والعلماء منهم على وجه الخصوص لم يفقهوا القرآن كما يفقهه الكاتب، فهو يرى ضرورة سحب القرآن من أيديهم، يقول: (علينا أن نسحب القرآن قبل أن يفوت الأوان من أيدي السادة الوعاظ المعروفين بالعلماء الأفاضل، أو رجال الدين، حيث يجب أن يكون موقف هؤلاء العلماء الأفاضل من القرآن هو كموقف العامة تماما، التسليم، لأن معلوماتهم بالنسبة للقرآن لا تزيد عن معلومات العامة بتاتا، وإن كان لهؤلاء الناس دور، فدورهم وعظي بحت).[18]

وهذا أسلوب إرهابي في التعامل مع الآخرين، يدل على أن من يسمون أنفسهم بالعقلانيين لم يتقدموا خطوة واحدة إلى الإمام، من يوم ما قام أسلافهم المعتزلة بامتحان الناس في قضية خلق القرآن، والتي كان من آثارها زج إمام أهل الحديث أحمد بن حنبل في السجن وحتى اليوم، فهم يصادرون الآراء، ولا يقبلون إلا ما تمليه عليهم عقولهم، ما معنى نسحب القرآن؟ وما هذا التعميم الخاطئ اللامنهجي، وكيف يسوي بين العلماء والعامة؟ ومن هم العلماء الذين يقصدهم؟ إن كثيرا من علماء الدين اليوم يعرفون عن علوم الحياة والدين مثلما يعرفه هو أو أكثر، وكثير من علماء الدين يتخرجون من جامعات الغرب والشرق على حد سواء، ويجيدون من اللغات الأجنبية مثلما يجيده الآخرون أو أكثر، فلا داعي لشن حملة على علماء الدين، حتى لا يكون الكاتب في صف أصحاب البروتوكولات الذين أعلنوا أن من أهدافهم السخرية من رجال الدين والحط من أقدارهم. حيث جاء في خططهم: (لقد وجهنا اهتماما كبيرا إلى الحط من كرامة رجال الدين الأمميين غير اليهود في أعين الناس، وبذلك نجحنا في الإساءة إلى رسالتهم والإضرار بها، وهي التي كانت تشكل عقبة كبيرة في طريقنا، إن نفوذ رجال الدين على الناس يتضاءل يوما بعد يوم، اليوم تسود الحرية الدينية في كل مكان، ولن يطول الوقت لسنين قليلة حتى تنهار المسيحية انهيارا تاما، سيبقى علينا بعد ذلك السهل اليسير للقضاء على الديانات الأخرى).[19]

ثانيا: نماذج من الاجتهادات التفسيرية الحديثة:

---

[18] – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص(205).

[19] – بروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم التلمود، شوقي عبد الناصر، البروتوكول السابع عشر، ص (164).

1- فسر أحدهم قوله تعالى: (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم)[20] بقوله:

(فالصدر هنا ليس جوف الصدر، ولا جوف الرأس: الجمجمة، وإنما هو كما يقول الشاعر:

ونحن أناس لا توسط بيننا = لنا الصدر دون العالمين أو القبر

فالصدر هنا تعني ما نقوله الآن الصدراة، كأن نقول إن إسحاق نيوتن يحتل مركز الصدارة بين علماء الرياضيات، وإن أينشتاين يحتل مركز الصدارة بين علماء الفيزياء، فالراسخون في العلم هم من الناس الذين يحتلون مكان الصدارة بين العلماء والفلاسفة، وهؤلاء من أمثال البيروني، الحسن بن الهيثم، ابن رشد، إسحاق نيوتن، أينشتاين، تشارلز دارون، كانت، هيجل).[21]

وهذا التفسير خاطئ، لأن لفظ الصدور تكرر كثيرا في القرآن بمعناه الدلالي الأولي، وليس بمعناه المجازي، والحقيقة هي الأصل، قال تعالى: (ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)[22]، وقال: (ألم نشرح لك صدرك)[23]، والصدر: الجوف الذي فيه القلب، وليس من الصدارة في هذه الآيات. قال الراغب: (الصدر: الجارحة... قال بعض الحكماء: حيثما ذكر الله تعالى القلب، فإشارة إلى العقل والعلم. نحو: [إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب] ق/37، وحيثما ذكر الصدر فإشارة إلى ذلك، وإشارة إلى سائر القوى من الشهوة والهوى والغضب ونحوها)[24]

2- وفسر الكاتب الاستعاذة الواردة في سورة الناس بقوله: (الاستعاذة بالله سبحانه وتعالى من الوسواس الخناس الذي يوسوس في الناس الذين يحتلون مكان الصدارة في مجتمعهم أو في العالم بأسره، إن النتيجة المباشرة لما قلنا هي أن كل التفاسير الموجودة بين أيدينا ليست أكثر من تفاسير تاريخية مرحلية للقرآن، أي لها قيمة تاريخية لأنها نتاج أشخاص عاشوا منذ قرون).[25]

---

[20] - سورة العنكبوت، الآية (49).

[21] - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص(193).

[22] - سورة الحج، الآية (46).

[23] - سورة الشرح، الآية (1).

[24] - : مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (صدر).

[25] - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (193-194).

جعل الناس هم الذين يحتلون مراكز الصدارة، وأما الذين لا يحتلون مراكز الصدارة فهل هم من الناس أم ليسوا منهم؟ وهل يوسوس لهم الشيطان أم لا. إن لفظ الناس اسم جنس يعم الجميع وليس محددا بطائفة دون أخرى، وأما الحملة على كتب التفسير فهي منهجية خاطئة، لأننا نقول للكاتب إن تفسيرك للقرآن الآن هو تفسير تاريخي باعتبار أنه قد دخل التاريخ، فليس له قيمة الآن، وإنما له قيمة تاريخية، تُرى متى يكون التفسير تاريخيا أو غير تاريخي؟ ما هي المدة التي ينبغي أن تمر على وفاة المفسر حتى يكون تفسيره تاريخيا؟ إنه لا يمكن إسقاط التفاسير بهذه الصورة، فالعلم الذي فيها لا تسقط قيمته باعتبار الزمن، وأما بعض آراء مفسريها واجتهاداتهم في الأمور الكونية فقد ننظر إليها باعتبارها مرحلة تاريخية، ولكن هنالك أحكام الدين والقصص والتشريع والفقه والتاريخ والسيرة وغيرها مما لا يمكن إغفالها أو إسقاطها أبدا.

3- قال تعالى: (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم)[26]، قال الكاتب في تفسيرها: (إن الانتباه لمواقع النجوم في الكتاب كله، وهي الفواصل بين الآيات لا مواقع النجوم في السماء، هي من مفاتيح تأويل القرآن وفهم آيات الكتاب كله).[27]

وسوف نستعرض ما قاله المفسرون في هذه الآية قبل مناقشة الكاتب:

قال الزمخشري: (ومن المجاز: أنزل القرآن نجوما، ونجم عليه الدين).[28]

وقال الراغب في قوله تعالى: (والنجم إذا هوى)[29] قيل أراد به الكوكب، وقيل أراد بذلك القرآن المنجم المترل قدرا فقدرا، وعلى هذا قوله: (فلا أقسم بمواقع النجوم)[30] فقد فسر على الوجهين[31].

---

[26] – سورة الواقعة، الآيتان(75-76).

[27] – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص(199)

[28] – أساس البلاغة، مادة (نجم).

[29] – سورة النجم، الآية (1).

[30] – سورة الواقعة، الآية (75).

وقال أبو حيان: (قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم: هي نجوم القرآن التي أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويؤيد هذا القول [إنه لقرآن] فعاد الضمير على ما يفهم من قوله: [بمواقع النجوم] أي نجوم القرآن، وقيل: النجوم الكواكب ومواقعها، قال مجاهد وأبو عبيدة عند طلوعها وغروبها)32.

وقال الألوسي: (أي بمساقط كواكب السماء ومغاربها، كما جاء في رواية عن قتادة والحسن، على أن الوقوع بمعنى السقوط والغروب، وتخصيصها بالقسم لما في غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير، ولذا استدل الخليل عليه السلام بالأفول على وجود الصانع جل وعلا).33

وعلى هذا فكلام الكاتب منقول من كتب التفسير، ولكن المفسرين جوزوا الرأيين في مواقع النجوم، فإما أن يكون المراد نجوم السماء، أو الفواصل القرآنية، والكاتب اعتنق رأيا منهما ورفض الآخر بلا حجة ولا دليل، علما أن الرأي الذي يقول بأن المراد نجوم السماء هو الأقرب للعقل والنفس، وهو الأقرب إلى دلالة الكلام عند العرب، فعندما يطلق لفظ النجوم يتبادر إلى الذهن المعنى الحسي قبل غيره، وهذه الفواصل التي يتكلم عنها مختلف في بعضها، ولذلك اختلفوا في عدد آيات بعض السور، وقد أقسم الله بما هو ظاهر ملموس أمام الأعين، وهو مواقع نجوم السماء، وأما القرآن فلم يكن مكتوبا وموزعا على الصحابة بالصورة التي في أيدينا حتى يتأملوا في فواصل الآيات، بل لقد كان أكثرهم أميين، وإنما نشأ علم الفواصل بعد ذلك، مما يرجح الرأي الأول، ولا ينفيه كما فعل الكاتب. وأما قول العلامة أبي حيان إن الضمير في (إنه لقرآن) عاد إلى ما يفهم من قوله:(مواقع النجوم) أي نجوم القرآن، ففيه نظر، لقول الله تعالى: (فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنس، والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس، إنه لقول رسول كريم)34، لأن الضمير هنا في إنه يعود على القرآن، ولا صلة للقرآن بالخنس، كما أنه لا صلة له بمواقع النجوم، وقد أقسم الله مرة

---

31 – : مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (نجم).

32 – البحر المحيط، (92/10).

33 – روح المعاني، (56/27).

34 – سورة التكوير، الآيات (15-19).

بالنجم، ومرة بالخنس، ومرة بمواقع النجوم، ومرة بالشمس والقمر وغير ذلك على أن ما أنزله على محمد هو كلام من لدنه سبحانه وتعالى.

4- قال تعالى: (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون، فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون، وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين)35، قال في تفسير الشجرة: (الآية 20 معطوفة على الآية 19 ولكنها مفصولة عنها منجمة، ذكر في هذه الآية شجرة واحدة فقط، وما هي هذه الشجرة لا ندري، ولكننا نقول إنها مهمة جدا لأنها في آية وحدها ومن المرجح أنها لا تصلح للطعام الآدمي، لذا قال: (وصبغ للآكلين) ولو كانت هذه الشجرة كما يقول بعضهم هي الزيتون لوضعها في الآية 119 الزيتون طعام الآدمي).36

إن هذه الشجرة تخرج في طور سيناء، فهي محددة الموقع، فلا يعقل أن يذكر الله للعرب وصف شجرة في مكان يقع على مشارف الجزيرة، وهم لا يعرفون هذه الشجرة مع علمهم بذلك المكان، والكاتب الذي عاب على الصحابة هجرانهم للقرآن، وهم لم يهجروه، حيث فسروا الآية بالزيتون، بل هو الذي هجر القرآن، حين قرر بعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن أنه لا يدري المراد من الشجرة!، ألم يقل إن العلماء في العصر الحديث أقدر على فهم القرآن ممن سبقهم؟ لأن لديهم المنهج العلمي وأدوات البحث، هل تجهيل الناس بالحقائق العلمية هو المنهج العلمي الذي يتبعه؟.

وأما قوله: (لا تصلح للأكل) فهذا مخالف للحقيقة، لأن الآية قالت: تنبت بالدهن، وهو المادة الدهنية المستخرجة من الزيتون: الزيت. وصبغ للآكلين، أي بالإضافة لكونها تعطينا الدهن الذي له منافع كثيرة، فهي تعطينا الصبغ، قال الراغب: (وصبغ للآكلين، أي: أدم لهم، من قولهم: اصطبغت بالخل)37 ولذلك جاء قوله (للآكلين)عقب الصبغ ليبين أن ثمر هذه الشجرة مما يؤكل وينتفع به. وأما وضع هذه الشجرة في آية مستقلة فهو من باب العناية بها نظرا لأهميتها وفضلها، وهذا شائع في لغة العرب وأساليبهم.

---

35 – سورة المؤمنون، الآية (18-20).

36 – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص(200).

37 – مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (صبغ).

5- جاء في تفسير قوله تعالى: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم)38:(أي الراسخون في العلم يعلمون ما هي النظريات والحقائق العلمية التي يمكن استنتاجها من الآية القرآنية، كل حسب اختصاصه وحسب الأرضية المعرفية لعصره، وحيث يمكن استنتاج نظريات علمية جديدة تعتبر قفزات هائلة في المعرفة الإنسانية، مثل نظرية النشوء والارتقاء لداروين لأنها تعتبر نموذجا حيا ممتازا للتأويل).39

قصر مصطلح الراسخين في العلم على علماء العلوم البحتة دون علماء العلوم الإنسانية بغير وجه حق، فالراسخون في العلم هم الذين يمتلكون المعرفة من شتى جوانبها وليسوا فئة من أصحاب التخصصات النادرة دون غيرهم. قال الراغب: (الراسخ في العلم: المتحقق به الذي لا يعرضه شبهة)40، وأما دارون فنظريته باطلة وهي تأويل إلحادي لنشأة الخلق من دون خالق، وسيأتي الحديث عنها فيما بعد.

6- جاء في تفسير قوله تعالى: (يسبح لله ما في السماوات والأرض)41:(والتسبيح جاءت من سبح وهو الحركة المستمرة كالعوم في الماء، كقوله عن حركة كل شيء (كل في فلك يسبحون) الأنبياء/ 13، هذا الصراع يؤدي إلى التغير في الأشياء، وينتج عنه مقولة أن الموت حق، والله حي باق).42

والتسبيح هنا ليس من السباحة كما قال الكاتب، لأنه لو كان من السباحة وهي الحركة لقلنا إن ما لا يتحرك لا يسبح لله، فهناك أشياء ساكنة في الكون، قال تعالى: (وله ما سكن في الليل والنهار)43، والصواب ما قاله الراغب: (التسبيح: تتريه الله، وأصله المر السريع في عبادة الله

---

38 – سورة آل عمران، الآية (7).

39 – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص(194-195).

40– مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (رسخ).

41 – سورة الجمعة، وسورة التغابن، الآية (1).

42 – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور،ص (223).

43 – سورة الأنعام، الآية (13).

تعالى).44 والفرق بين التسبيح والتحميد، أن التسبيح هو: (تتريه الله عما لا يليق به، وأما التحميد فهو إثبات المحامد له، والكمالات اللائقة به).45

7- جاء في تفسير قوله تعالى: (ليلة القدر خير من ألف شهر)46: (وهنا الشهر لا تعني الشهر الزماني، كأن نقول ألف شهر أي 83سنة وثلث، أما إذا فهمناها على أنها من الشهرة والإشهار فيتطابق المعنى مع مفهوم الإنزال والجعل، وهنا كلمة ألف إما أن تعني أن إشهار القرآن خير من ألف إشهار آخر،... أو نفهم ألف شهر، ألف تعني تأليف الأشياء بعضها مع بعض كان نقول الأليف والألفة والتأليف، فنفهم ألف شهر على أنه إذا جمعت كل الأوامر الأخرى الصادرة من رب العالمين وتألفت بعضها مع بعض، فإن إشهار القرآن خير منها جميعا).47

هذا تحريف للمعنى، فإن القرآن قد ذكر لفظ (ليلة) أولا، ثم استعمل صيغة التفضيل (خير) والعادة أن تفضل ليلة على غيرها من الليالي والأزمنة، فذكر بالمقابل لها ألف شهر، و لم يستعمل لفظ شهر بالقرآن بمعنى الإشهار أبدا48، وإذا سمعت كلمة شهر انصرفت إلى الزمن المعروف بداهة49، والعادة أن يقال: يوم كسنة، ويوم كشهر، فتشبه الأيام ببعضها البعض. قال أبو تمام50:

أعوام وصل كان ينسي طولها = ذكر النوى فكأنها أيـــــام

ثم انبرت أيام هجر أردفـــت = بجوى أسى فكأنها أعـــوام

8 – قال الكاتب تعقيبا على عدد من الآيات ورد فيها لفظ سبحان الله مثل:(لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه)51، قال: (أما القول سبحان الله هو تتريه الله عن النقائض

---

44 – مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (سبح).

45 – سيدنا محمد رسول الله، شمائله الحميدة وخصاله المجيدة، ص (257).

46 – سورة القدر، الآية (3).

47 – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص(206-207).

48 – انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (شهر).

49 – انظر: أساس البلاغة للزمخشري، مادة (شهر)

50 – ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، (3/150-151).

51 – سورة الزمر، الآية (4).

والعيوب فهو قول قد مضى زمانه، حيث إن النقائض والعيوب تحمل معنى معرفيا ومعنى اجتماعيا إنسانيا، فهي تحمل مفهوم النسبية حيث تتغير هذه المفاهيم من مكان لآخر ومن زمن لآخر، إن التسبيح الحقيقي للأشياء كلها في وجودها لله تعالى يرجع إلى كون الله مصدر الحركة الجدلية الداخلية في الأشياء كلها، منذ أن خلق الله هذا الكون المادي، وهو منزه عن هذه الحركة في ذاته، لأنه واحد أحد صمد، ليس كمثله شيء حيث إن هذه الحركة تؤدي إلى هلاك الأشياء: الموت).52

وهذا التفسير للتسبيح بمعنيين مختلفين خطأ، فاللغة هي اللغة، فإذا حملت الألفاظ معاني مغايرة تماما عبر الأزمنة، تتغير اللغة، ولا يبقى صلة وصل بين الأمس واليوم إلا الأصوات اللغوية فقط، والأصوات نفسها قد تتغير تبعا للهجات والألسنة، فتنقطع علاقة اللفظ صوتا ودلالة بين ماضيه وحاضره، فنكون أمام لغة أخرى مغايرة للأولى ولكن مكتوبة بحروف عربية، وهذا منهج عقيم في فهم اللغة وتفسير النصوص القديمة والحديثة وفهمها على حد سواء.

وأما قوله: إن الله مصدر الحركة، فنقول إن الله مصدر الإيجاد أولا، لأن الشيء لا يتحرك قبل أن يوجد، فالله أوجد وأبدع ونفخ الروح في الكائنات الحية، وبعد ذلك تحركت الكائنات، ولكنها لا بد أن تسكن عقب الحركة، فالحركة والسكون زوجان متعاقبان على الأحياء في هذه الحياة، حتى نهاية رحلتها بالموت، فإذا مات الحي بعثه الله بعد ذلك فتحرك، فالنهاية هي الحركة الدائمة، وليست السكون، والله ليس مصدر الحركة وحدها، بل هو مصدر السكون أيضا، لأن الشيء قبل أن يكون لا يوصف بحركة ولا سكون.

9- وقد أكد الكاتب أنه لا بعث للنبيين والشهداء، لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، في قوله: (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق

52- الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (224).

وهم لا يظلمون)53 لاحظ قوله: (وجيء بالنبـــيين والشهداء) قال هذا لأنهم أصلا موجودون عند ربهم).54

والاستدلال الذي عرض هنا باطل، فقد قال تعالى (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها)55، فهل هذا ينفي أنها كانت ميتة قبل أن تأتي، لأن الإتيان ينافي الموت؟ لقد كانت ميتة فبعثت وجاءت، وهذا من مجاز الحذف في اللغة، وأيضا الشهداء والأنبياء لهم حياة خاصة بهم، ولكنهم يبعثون من قبورهم ويؤتى بهم، قال تعالى: (إنك ميت وإنهم ميتون)56، وليست الحياة التي هم فيها الآن حياة بأجسادهم وأرواحهم حتى يستغنون عن النشر والبعث مرة أخرى. والأحاديث الصحيحة تؤكد ما ذكرناه.

10- قال الكاتب: (الجنة والنار لم توجدا بعد، واستقرار النقيضين فيهما).57

وهذا كلام ردده بعض المعتزلة من قبل، وهو لغو لا طائل فيه، وتنقضه الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة، وكيف ذكر الكاتب أن الأنبياء والشهداء عند ربهم يرزقون، ثم أنكر وجود الجنة الآن؟ فأين هم هؤلاء الآن؟ مقتضى هذا الكلام كله هو التشكيك بالأمور الغيبية، وهو أمر لا طائل من ورائه، والعاقل من قدم العمل على الجدل(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد).58

11 - جاء في تفسير قوله تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)59: (تنص هذه الآية على معنى خطير في التشريع، إذ تقول (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) ولتحليل تركيب هذا النص يمكن إيراده على نواحي شتى لاستبانة الفارق في المعنى، [لكل منكم جعلنا شرعة ومنهاجا] في هذا

---

53 - سورة الزمر، الآية (69).

54 - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (382).

55 - سورة النحل، الآية (111).

56 - سورة الزمر، الآية (30).

57 - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (240).

58 - سورة الحشر، الآية (18).

59 - سورة المائدة، الآية (48).

المبنى المحرف يعني أن الله قد قيد التشريع به، وأنزله أمرا دينيا دون الرجوع إلى أبعاد أخرى، هذا معنى لكل منكم جعلنا. أما النص لكل جعلنا منكم فيعني أن الله يرد التشريع إلى [منكم]، أي جعلنا التشريع منكم أي مطابقا لخصائصكم وتكوينكم وأعرافكم، وبمعنى أكثر تحديدا أن الله يترل حكمه متوافقا مع أخلاقية الواقع وسلوكيته، ضمن توافق تام مع الظرف التاريخي، فالشرعة والمنهاج هما استخلاص إلهي مقيد بشخصية الواقع، وقد أراد الله عبر هذا النص أن يطلعنا على نسبية التشريع المترل تبعا للحالات التاريخية والأوضاع الاجتماعية المختلفة، إن عقوبات القطع والرجم والجلد كانت سارية المفعول في ذلك العصر التاريخي وكان العرب يقطعون يد السارق اليمنى فحولهم الإسلام إلى اليسرى وبشروط معينة)60، ويتابع الكاتب: (إن الثابت في التشريع هو مبدأ العقوبة، أو الجزاء، أما الأشكال التطبيقية لهذا المبدأ فموكولة لكل عصر على حسب أوضاعه وأعرافه وقيمه، وبهذا يستوعب القرآن متغيرات العصور ويبقى كما أراد الله له صالحا لكل زمان ومكان).61

وما قاله الكاتب خلط وتحريف عجيب للنص القرآني، ونبدأ ببيان المعنى كما ذكر المفسرون: قال أبو حيان: (الظاهر أن المضاف إليه كل المحذوف هو أمة، أي لكل أمة، والخطاب في منكم للناس، أي أيها الناس: لليهود شرعة، ومنهاج، وللنصارى كذلك، قاله علي وقتادة والجمهور، ويعنون في الأحكام، وأما المعتقد فواحد)62.

وقال الألوسي: (اللام للاختصاص، فيكون لكل أمة دين يخصها، ولو كان متعبدا بشريعة أخرى لم يكن ذلك الاختصاص)63.

وأما إعراب الآيات فهو: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا: كلام مستأنف مسوق لحمل أهل الكتابين من معاصريه على الانصياع لما جاء به، ولكل متعلقان بجعلنا، أو أنه مفعول أول لجعلنا،

---

60 – العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، ص (278-279)، دار المسيرة.

61– العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، ص (279)، دار المسيرة.

62 – البحر المحيط، لأبي حيان، (283/4).

63 – روح المعاني، للألوسي، (152/6).

ومنكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة للاسم المحذوف، الذي ناب عنه تنوين العوض اللاحق بـــ: لكل، أي لكل أمة منكم، وشرعة مفعول جعلنا، ومنهاجا عطف على شرعة)64.

وأما معنى جعل في اللغة فقد قال الراغب: (جعل لفظ عام وهو أعم من فعل وصنع وسائر أخواتها، ويتصرف على خمسة أوجه:

الأول: يجري مجرى صار وطفق. نحو: جعل زيد يقول كذا.

والثاني: يجري مجرى أوجد. نحو: (وجعل الظلمات والنور).65

والثالث: في إيجاد شيء من شيء وتكوينه منه (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا).66

والرابع: في تصيير الشيء على حالة دون حالة، نحو (الذي جعل لكم الأرض فراشا).67

والخامس: الحكم بالشيء على الشيء حقا كان أو باطلا، فأما الحق فنحو قوله تعالى: (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)68، وأما الباطل فنحو قوله تعالى: (ويجعلون لله البنات). 69

وعلى هذا فلا المعنى ولا الإعراب يساعد الكاتب فيما ذهب إليه، فما ذكره الكاتب تدليس على القارئ، إن الله قد خلق الناس وهو أعلم بهم (ألا يعلم من خلق)70، (أتعلمون الله بدينكم)71، فهو ليس بحاجة إلى واقع يراه ليستمد منه التشريع الذي يناسب ذلك الواقع، بل هو يضع الشريعة التي تناسب الخلق في كل زمان ومكان وفقا لفطرتهم وتكوينهم العقلي والنفسي باعتبار أن الإنسانية وحدة واحدة من حيث التكوين والمنشأ والسلوك، وأما الواقع فهو متغير من وقت لآخر، ومن مدينة إلى أخرى، فإذا كان شرعه سيطابق واقع الأمم والشعوب لوجب أن يبعث من الأنبياء

---

64 – إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين درويش، (243/2).

65 – سورة الأنعام، الآية (1).

66 – سورة النحل، الآية (72).

67 – سورة البقرة، الآية (22).

68 – سورة القصص، الآية (7).

69 – سورة النحل، الآية (57). وانظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة (جعل).

70 – سورة الملك، الآية (14).

71 – سورة الحجرات، الآية (16).

والشرائع بعدد تلك الأمم والشعوب، لأن كل شعب له واقعه ومشاكله التي تميزه عن غيره، وفي كل فترة من الزمن يتغير هذا الواقع، وعليه فإن شريعة الله لا تتبع واقع الناس وأحوالهم وقد بلغوا مرحلة الرشد، (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض)[72]، وإنما هو تشريع من الله (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)[73]، والمؤمن لا يملك أن يعمل ما لا يريده ربه (ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)[74]، وقد حرف الكاتب تفسير الآية فأطلق على التفسير الصحيح لفظ التحريف، والمحرف الذي لجأ إليه هو الصحيح عنده!. أين يذهب الكاتب بلفظ (لكل) الذي تجاهله تماما، إذا كان التركيب (جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) فما هو دور (لكل) في السياق هنا، وهل ثمة تركيب أفسد من هذا الذي اخترعه؟ فهل يتحول الإنسان إلى شريعة ومنهج، يعني جعلناكم شريعة ومنهاجا، إن جعل تفيد معان كثيرة، كما سبق ذكره، منها التحويل، أقول جعلت الماء ثلجا، أي صيرته، فلم يعد على حالته الأولى، فهل البشر الآن هم شرائع ومناهج وليسوا بشرا. كما تأتي جعل بمعنى أوجد، وهذا لا يستقيم أيضا وفق ترتيب الجملة الذي اخترعه، فهل تخلق المناهج من الناس، وإذا كانت مخلوقة منهم فإن الناس فيهم من يعبد الشيطان ومن يعبد الأوثان ويشرب الخمرة، فلماذا لا تتطابق الشريعة مع واقع هؤلاء، بدلا من أن تحاربه وتسعى في تغييره. ثم أين يذهب الكاتب بعشرات الآيات التي توضح أن حق التشريع بيد الله وحده، (ألا له الخلق والأمر)[75]، (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه)[76]، إلى آخر هذه الآيات التي تلزم المسلم باتباع ما أمر الله.

أما محاولة التحلل من نظام العقوبات الذي شرعه الله، من قطع ورجم وجلد، فهو غير مقبول أبدا، لأن كل أنظمة الدنيا قديما وحديثا تؤمن بمبدأ العقوبة، ووضعت عقوبات على الجرائم الكبرى من قتل واغتصاب وسرقة ونحوها، فما الذي يميز نظام العقوبة في تشريع ما عن آخر، إن المميز هو

---

[72] – سورة المؤمنون، الآية (71).

[73] – سورة الكهف، الآية (29).

[74] – سورة الأحزاب، الآية (36).

[75] – سورة الأعراف، الآية (54).

[76] – سورة يوسف، الآية (40).

نوعية الجزاء، فإذا قلنا أن المهم هو فكرة الجزاء وليس نوعه لاقتضى هذا أن نقر بأن جميع القوانين والأنظمة القضائية في العالم هي قوانين إسلامية، لأنها تتلاءم مع واقع الناس من جهة ومع الشريعة التي تقر بالعقوبة دون تحديدها من جهة أخرى وبهذا تكون أمريكا دولة إسلامية كما صرح به بعضهم، وأنها مثلا أفضل من بعض البلاد الإسلامية التي لا يأمن فيها المسلم على نفسه وماله، لذلك وجبت الهجرة إليها، وأي تخليط أكبر من هذا؟!.

11- ومما جاء في تفسيرهم حول الإنسان الأول: (آدم) تأكيد لنظرية التطور التي جاء بها دارون، قال أحدهم: (إن البشر وجد على الأرض نتيجة تطور استمر ملايين السنين: البث، حيث إن المخلوقات الحية بث بعضها من بعض طبقا للقانون الأول للجدل، وتكيفت مع الطبيعة وبعضها مع بعض طبقا للقانون الثاني للجدل، وقد وجد البشر وانتشر في مناطق حارة مغطاة بالغابات، حيث يوجد في هذه الغابات مخلوقات حية أخرى كان يفترسها البشر، (يسفك الدماء) وكان يسلك سلوك الحيوانات الأخرى أي كان كائنا غير عاقل، إذ لم تظهر فيه ظاهرة العمل الواعي وهو بشر) 77، ويضيف: (وهنا أيضا يجب أن نفهم أن آدم ليس شخصا واحدا وإنما هو جنس نقول عنه الجنس الآدمي).78

وفي موضع آخر يقول: (إنه من الخطأ الفادح أن نظن أن الله خلق الأفاعي وحدها ونفخ فيها الروح، وخلق القطط وحدها ونفخ فيها الروح، وخلق الأسماك وحدها ونفخ فيها الروح، ونؤكد هنا أننا نفهم الروح على أنها ليست سر الحياة وإنما هي سر الأنسنة ونقصد بها تحول البشر الذي هو من الفصيلة الحيوانية إلى إنسان)79.

وفي الإطار نفسه يقول كاتب آخر: (ليس المهم إذن تحقيقات داروين نفسها، ولكن المهم هو ما أصبح عبر العلم منظورا أو مسلمة أي التحول والخلق عبر التطور، هذه الخلفية تشكل خلفية للذهنية المعاصرة وبالتالي فيمكن لأي عقل معاصر أن يقبل بمفهوم ألا يكون الإنسان مخلوقا في كماله منذ اليوم الأول، ولكنه متطور إلى شكله الراهن عبر هذه الملايين من السنين، مثله مثل

---

77 – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (290).

78 – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (291).

79 – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (227).

الكائنات الأخرى)80، ويضيف قائلا: (بالنسبة لنا يختلف منظور التطور باختلاف الذهنية ومقومات كوينها، ولادة الشيء من نقيضه ولادة ممكنة).81

والحقيقة أن نظرية التطور، أو النشوء والارتقاء، هي نظرية قديمة جدا، ترجع إلى آلاف السنين، وتوجد آثارها في آثار في الخرافات الدينية التي وضعها حكماء بابل وآشور ومصر القديمة، وممن تناول هذه النظرية أرسطو الذي أعلن أن الإنسان هو نهاية عملية ارتقاء طويلة مستمرة، وقد عرض لهذه النظرية الإنجليزي توماس هكسلي، والعالم الألماني أرنست هوكل، والعالم الإنجليزي تشارلز دارون ت1919م82، (فافترض عام 1859 أن كل الأنواع الحالية من الأحياء يمكن أن تكون ذات أصل واحد، أو بضعة أصول تتنوع طبقا لقانون الانتخاب الطبيعي، أو بقاء الأصلح،... وفي أخريات أيامه تراجع دارون عن تلك النظريات، ونادى بأن ما في العالم من نظام، يشهد بعناية إلهية، وأنه قد اختار لنفسه مذهب اللاأدريين، وبأن المسألة خارجة عن نطاق العقل، ثم استطرد بعد ذلك فقال: بأنه يستحيل على العقل الرشيد أن تمر به ذرة من الشك في أن هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغة والأنفس الناطقة المفكرة، قد صدر عن مصادفة عمياء، لأن المصادفة لا تخلق نظاما، ولا تبدع حكما، وذلك أكبر دليل على وجود الله)83، وهذه النظرية قد ثبت بطلانها علميا، لأن (نظرية النشوء والارتقاء عاجزة عن التدليل على حدوث أي ارتقاء تقدمي، وإنما على العكس من ذلك تؤدي إلى انحطاط وانقراض الحياة على وجه الأرض).84، وفي هذا الصدد (أعلن العالم البيولوجي الأمريكي أوستن كلارك (1830-1954) بأنه لا توجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأن أيا من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر مع غيرها، وأن كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عملية خلق خاصة منفصلة).85

---

80 – العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، ص (297)، دار المسيرة.

81 _ العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، ص (297)، دار المسيرة.

82 – انظر: الإنسان ذلك المخلوق العجيب، د. سمير يحيى الجمال، ص (9-13).

83 – الإنسان ذلك المخلوق العجيب، د. سمير يحيى الجمال، ص (14-16).

84 – الإنسان ذلك المخلوق العجيب، د. سمير يحيى الجمال، ص (21-22).

85 – الإنسان ذلك المخلوق العجيب، د. سمير يحيى الجمال، ص(19)

ومن المستهجن أن النظريات الباطلة المستهجنة التي يتخلى عنها الغرب، نأتي ونستوردها ونلبسها مسوح الحقائق العلمية، وندعو إليها تحت ستار الإلحاد تارة، والدين تارة أخرى!.

يبقى أن نشير إلى ما سماه الكاتب بالقانون الثاني للجدل، فهو هنا يحاول إسقاط التفسير المادي للتاريخ على التاريخ الإسلامي، والجدلية نظرية فلسفية نادى بها إنجلز مثلما نادى ماركس بالشيوعية، وكلاهما يهوديان، وقد هوت الشيوعية وهوى معها التفسير المادي للتاريخ، وكان من المفترض وفق التفسير المادي أن تكون الشيوعية هي المحطة الأخيرة في النظم الاجتماعية التي عرفتها البشرية، لذا فإن إسقاط المصطلحات المستوردة الميتة على كتاب الله مع ثبوت بطلانها وفشلها وإخفاقها، فيه تجن كبير على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثالثا: قضية الإعجاز القرآني:

من المعلوم أن القرآن معجز، ووجوه إعجازه كثيرة، منها ما يتعلق بالبلاغة والفصاحة، ومنها ما يتعلق بالأخبار الغيبية والمعجزات العلمية، ومنها ما يتعلق بالتشريع والأحكام ...إلخ، وقد تحدى الله العرب على أن يأتوا بمثله، فعجزوا، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور، فعجزوا، ثم تحداهم بسورة واحدة، فعجزوا، وما زال التحدي قائما إلى قيام الساعة، وبين لهم أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثل القرآن أبدا، قال تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)[86].

أما الكتاب المحدثون فقد كان لهم رأيهم في الإعجاز، فرأى أحدهم أن بعض القرآن معجز دون بعضه الآخر، حيث قسم ما أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم إلى (1- الكتاب، 2- أم الكتاب، 3- النبوة وفيها القرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتاب)[87]، وقال: (أم الكتاب هي

---

[86] - سورة البقرة، الآيتان (23-24).

[87] - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (213).

مجموعة الآيات التي تشكل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وفيها العبادات والحدود والتعليمات والفرقان).88

وبناء على هذا التقسيم أنكر الإعجاز في أحكام الكتاب، يقول: (إن الأحكام من الكتاب وليست من القرآن، وهي الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى ولا يوجد فيها أي إعجاز)89، كما أنكر الإعجاز في أم الكتاب، يقول: (إن الإعجاز جاء في القرآن فقط، وليس في أم الكتاب)90.

وكاتب آخر ينكر إعجاز القرآن كلية، ويقول بهذا الصدد: (يتجه البعض إلى القول بأن الله قد أبقى معجزته لمحمد في حيز القرآن، وهي معجزة مستمرة تحدى بها الله المجتمع العربي الجاهلي، ولا زال التحدي مستمرا وبالتالي فلم تكن ثمة حاجة لمعجزات أخر، والبعض يرى أن الرسالة المحمدية بوصفها خاتمة الرسالات ومتوجهة للبشر أجمعين، فقد جعلها الله تجربة مخاطبة خالصة للعقل، غير أن ما نراه نحن في هذا المجال وبحكم منهجنا يختلف عن الإيضاحين، أو الافتراضين السابقين، علما بأننا نسقط هذا الافتراض الثالث والقائل بأن التجربة المحمدية العربية كانت مليئة بالمعجزات، وهنا غالبا ما يشير المفسرون إلى شق صدر محمد في فترة تنشئته في ديار بني سعد، وإلى اختفاء الشجرة التي جلس لديها على مقربة من دار الراهب بحيرا، وإلى انشقاق القمر، وإلى انسياب الماء من أصابعه، وإلى بناء العنكبوت لعشها في فتحة غار ثور، وإلى رشقه مشركي بدر بالحصا، فنال منهم جميعا إلخ، الافتراضات هذه لا نأخذ بها نهائيا ليس لأنها لم ترد في القرآن، بل لأن القرآن ينفيها نفيا قاطعا وباتا... طبقا لمنهجنا فإننا نفسر خلو التجربة المحمدية العربية من الآيات المعجزة، برد أصول التجربة إلى الرحمة الإلهية في مقابل الخير العربي).91

لقد نفى الكاتبان إعجاز القرآن، الأول نفاه بشكل جزئي، والآخر نفاه بشكل كلي، وكذب بكل المعجزات الحسية الأخرى التي ثبتت بالقرآن أو بالسنة، وبهذا بقيت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بلا معجزة!، أي دعوى بلا دليل يساندها، فجردت النبوة من أعظم ركائزها وهو إعجاز القرآن.

---

88 – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (213).

89 – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (180).

90 – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (77).

91– العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، ص(150 – 151)، دار المسيرة.

وهذا ادعاء لم يقل به أحد من قبلهما، فالمعتزلة أقروا الإعجاز بالصرفة، ولكن ما سمعنا أحدا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم نفى إعجاز القرآن، إلا ابن الراوندي ومن شاكله من الزنادقة. وقد رد عليه أبو العلاء المعري، وفند ما في كتبه مثل التاج، والدامغ التي أبطل فيها الإعجاز، فقال: (وأما بن الراوندي فلم يكن إلى المصلحة بمهدي، وأما تاجه – أحد كتب ابن الراوندي – فلا يصلح أن يكون نعلا، و لم يجد من عذاب وعلا – أي ملجأ –)92. ويضيف أبو العلاء: (وأما الدامغ فما إخاله دمغ فيه إلا من ألفه، وبسوء الخلافة خلفه، وفي العرب رجل يعرف بدميغ الشيطان، وهذا الرجل كذاوي الخيطان – أسراب النعام – وإنما المنكَر أنه في الآونة يُذكر، دل ممن وضعه على ضعف دماغ، فهل يؤذن لصوت ماغ – صياح السنور –)93.

والمعري يؤكد أن القرآن معجز، يقول في هذا السياق: (وأجمع ملحد ومهتد، وناكب عن المحجة ومقتد، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بهر بالإعجاز، ولقي عدوه بالإرجاز، وما حذي على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، ولا هو من القصيد الموزون، ولا الرجز من سهل وحزون، ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهنة ذي الأرب، وجاء كالشمس اللائحة نورا للمسرة والبائحة، ولو فهمه الهضب الراكد لتصدع، أو الوعول المعصمة لراق الفادرة والصدع، {وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون}94، وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق، والزهرة البادية في جدوب ذات نسق).95

وشهادة المعري لها قيمتها، فقد نسب إليه التشكيك بالإعجاز، بيد أن هذا النص يبرئه مما نسب إليه. ويؤكد أن الإعجاز متفق عليه عند أهل الاختصاص مثلما هو متفق عليه عند عامة الناس، أيا كانت وجهتهم.

---

92 – رسالة الغفران، تحقيق: د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ص (469).

93 – رسالة الغفران، تحقيق: د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ص (471).

94 – سورة الحشر، الآية (21).

95 – رسالة الغفران، تحقيق: د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ص (472-473).

رابعا: الموقف من علم التفسير وكتبه:

يبدأ بعضهم بإرسال التعميمات القاطعة بشأن المفسرين، (لقد فهم المفسرون أن الدين كله هو اليهودية والنصرانية: الأديان السابقة، ولكن الدين كله هو اسم جنس، وأعتقد أن الدين كله بالإضافة إلى كل الديانات السابقة يعني الدين الإسلامي بمركباته الثلاث، ودين الحق هو أحد مركباته وهو أقواها جميعا).[96]

ويقول كاتب آخر في ذات الموضوع: (كثيرا ما يغفل المفسرون الارتباط الموضوعي والتاريخي بين الإسلام المحمدي والإسلام الإبراهيمي، ويظنون أن الإسلام مقتصر كاسم ومصطلح على الدعوة المحمدية).[97]

وهذه مغالطات مبتذلة تدل على عدم معرفة بكتب التفسير، يقول ابن كثير عند قوله تعالى: (إن الدين عند الله الإسلام)[98]: (إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم، فمن لقي الله بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بدين على غير شريعته فليس بمقتبل عند الله، كما قال تعالى: [ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه][99]الآية).[100]

ويقول أيضا: (والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: [وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون][101] والآيات في هذا

---

[96] – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (718).

[97] – العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، ص (281) دار المسيرة.

[98] – سورة آل عمران، الآية (19).

[99] – سورة آل عمران، الآية (85)

[100] – تفسير القرآن العظيم، (1/379-380).

[101] –سورة الأنبياء، الآية (25).

كثيرة، والأحاديث، فمنها قوله صلى الله عليه وسلم: [نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد]).102

ثم يدين أحدُ الكتاب العلماءَ الذين لم يقدموا شيئا ينفع المسلمين، يقول: (ماذا قدم السادة العلماء للناس؟ لقد تصدر العلماء المجالس والإذاعة والتلفزيون على أنهم علماء المسلمين وجلهم ناقل وليس بمجتهد أي إنهم قدموا لنا ماذا فهم السلف من القرآن، على أنه تفسير للقرآن، والواقع أنهم بذلك لم يقدموا ما يؤكد أن القرآن صالح لكل زمان ومكان، بل قدموا تفاعل هؤلاء الناس مع القرآن وبالتالي قدموا الأرضية المعرفية التاريخية لهؤلاء الناس، ونحن في القرن العشرين، أي قدموا لنا تراثا ميتا).

وهذا التعميم بلا أدلة تسانده ينقض الحكم من أساسه، وهو يتنافى مع أبسط قواعد المنهجية العلمية، وذلك لأن (التعميم الباطل أحد الأصول الكبرى التي تقتات عليها مغالطات المضلين والمفسدين في الأرض).103

ويضيف الكاتب السابق منتقدا المفسرين: (وبذلك أصبح الإسلام دين نقل، ومات العقل والنظرة النقدية إلى النصوص، وعند مشايخنا فهم القرآن هو عن.. عن، وقال مجاهد وعكرمة وابن عباس وابن كثير والزمخشري، علما بأن أقوال هؤلاء ليس لها قيمة علمية كبيرة بالنسبة لنا، ولكن لها قيمة تراثية أكاديمية بحتة، والقيمة الحقيقية هي للنص القرآني الحي المتشابه، وهكذا يمكن لنا أن نقدم التبرير العلمي لإصرار النبـــي صلى الله عليه وسلم على تدوين الوحي، وبنفس الوقت إصراره على عدم تدوين أقواله الشخصية، لأن الله هو الحي المطلق، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبي ولكنه إنسان، هكذا فقط، يمكن أن نقول بكل جرأة علمية: إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان).104

نلاحظ أن الكاتب نسف قيمة كتب التفسير كلها، بل والسنة أيضا، لأن محمدا صلى الله عليه وسلم إنسان مات، فصار كلامه مثل كلام المفسرين له قيمة تاريخية لا أكثر!.

---

102 – تفسير القرآن العظيم، (199/1).

103 – التحريف المعاصر في الدين، للميداني، ص (31).

104 – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (209).

ويرى كاتب آخر أن التفسير بالمأثور هو استلاب الحاضر لمصلحة الماضي، يقول: (بغض النظر عن حقيقة التطورية أو بطلانها المهم أن التطورية بمدارسها المختلفة الآن هي جزء من الدماغ المعاصر وتتضمن إسقاطاته النظرية على كل المواضيع بما فيها آيات الكتاب، وبالتالي فإن الفارق بين التفسير السلفي والإسقاطات الراهنة هو فارق في الزمان والمكان وليس مجرد تأويل عصري، أو تفسير بالرأي يخالف ما أجمع عليه أهل الحل والربط في مسائل التفسير، إن الإصرار على المنظور السلفي في التفسير بالمأثور والمنقول هو استلاب الحاضر لمصلحة الماضي، ومصادرة الزمن لصالح لحظة تاريخية معينة).[105]

إن التفاسير لها قيمتها العلمية في كل زمن، وهي ليست تفاسير تاريخية كما يزعمون، وليست العودة إليها استلاب الحاضر لمصلحة الماضي، فالماضي كان حاضرا، والحاضر سيصير ماضيا، والحقيقة هي الحقيقة سواء كانت في الماضي أو في الحاضر، ومالنا ونحن في بداية الألفية الثالثة للميلاد نعود إلى مصدر الفلسفة وهم علماء اليونان؟!، ولم يقل أحد بأن العودة إلى الجذور يجب تجاوزها حتى لا يستلب حاضر الفلسفة لحساب الماضي، فلماذا يعيبون علينا العودة إلى التفاسير المأثورة؟، إن هذه الحملة على كتب التفسير والتفسير المأثور بالذات، يراد من ورائها كسر حاجز الهيبة بين عامة الناس وهذا العلم، لكي يتعاطاه كل من هب ودب بدون منهج ولا مرجعية علمية، فيضيع كتاب الله مع ركام الأهواء والتفسيرات الجديدة التي لا تستند إلا للهوى الشخصي لا غير.

ويشن كاتب ثالث حملة ضارية على التفسير والمفسرين، يقول: (فالتفاسير التقليدية: الطبري، القرطبي، ابن كثير، الرازي، الزمخشري، محشوة بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، والآثار عن السلف وغيرها من الإسرائيليات المنقولة نقلا حرفيا أو محرفا، فضلا عن تأثرها بثقافة المفسر نفسه، فإذا كان معتزليا لغويا كالزمخشري أعطى تفسيره مسحة معتزلية، وإذا كان سلفيا كابن كثير والطبري اعتمد على النقول والمرويات.. إلخ، أما التفاسير والبحوث التي وضعها المستشرقون فإنها تنطلق من نقطة ثابتة وهي أن القرآن كتاب كبقية الكتب، وفكرة أنه من عند الله مستبعدة تماما، لأنهم ببساطة لا يؤمنون بالله أصلا، أو لا يؤمنون بالدين الإسلامي، وينسج على منوالهم من الأدعياء والمقلدة

---

[105] – العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، ص (298)، دار المسيرة.

الجديدة التي لا تفضل مقلدة الأسلاف، وقد تخلص المجتهدون الجدد في تفسير القرآن الذين بدأوا بمحمد عبده، وعدد كبير من الشيوخ من المدرسة الحديثة التي تضم الشهيد سيد قطب، والدكتور مصطفى محمود، والدكتور شحرور وغيرهم، من معظم ما جاء في التفاسير من إسرائليات، ولكن بعضهم أخذ بدعاوى النسخ وأسباب النزول.. إلخ، كما أنهم أضافوا من عند أنفسهم إضافات متعسفة متأثرين باتجاهاتهم، مثل الاتجاه اللغوي عند الدكتور شحرور في كتابه: الكتاب والقرآن، ومثل فكرة الحاكمية الإلهية عند الشهيد سيد قطب في الظلال، ومثل التقدم العلمي واتفاقه مع القرآن عند الدكتور مصطفى محمود، وكل ما جاء به هؤلاء على اختلاف وتفاوت مشاربهم دليل لا يدحض على صدق ما يروى عن رسول الله: من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ).[106]

وبهذا التحليل الموجز لكتب التفسير يتوصل الكاتب إلى النتيجة التالية: (نقول لهؤلاء السادة ليس هنالك داع أصلا لتفسير القرآن، للاعتبارات التالية:

1- إن أي تفسير لا بد وأن يمثل إسقاطا بشريا على الوحي الإلهي، وهو مرفوض رواية ودلالة، لأنه تحكيم للأدنى في الأعلى، الظنون في اليقين، وإنه لا بد أن يسفر عن إساءة أو انتقاص بحكم القصور البشري.

2- إن التفسير الوحيد المؤتمن الذي لا تعلق به شائبة هو تفسير القرآن نفسه بنفسه...

3- إن القرآن نزل أساسا لهداية الناس، لتحويلهم من الظلمات إلى النور، وهذا ما يحققه القرآن بطريقته الخاصة والفريدة من نظم موسيقي إلى تصوير فني إلى معالجة سيكيولوجية للنفس الإنسانية... وقد حقق القرآن الكريم غايته في خلق النفس الإيمانية أفضل تحقيق في العهد النبوي حيث لا تفاسير ولا شروح، وعاش الصحابة وقاموا بإنجازاتهم العظيمة، وختموا حياتهم وهم لا يلمون بشيء مما وضعه المفسرون من فنون).[107]

لقد أراد الكاتب أن يضيق على المسلمين، وأن يحصر الثقافة الإسلامية بالقرآن وحده من دون تفاسير، فهو يحرم المسلمين من جهود وثمرات عقول مفسريهم بحجة أنها إسقاط بشري على الوحي

---

[106] – ما بعد الإخوان، جمال البنا، ص (126-127).

[107] – ما بعد الإخوان، جمال البنا، ص (128_129).

الإلهي، علما أن الله ــ تعالى ــ في القرآن نفسه، دعا إلى تدبر آياته وسوره، وبين أن معانيها لا يحاط بها، وأنه أنزل القرآن بلسان عربي مبين، وطلب منا سؤال أهل الذكر عندما نجهل شيئا منها، وأمرنا بالتفقه بالدين، وهذه الأمور كلها مدعاة للبحث والتفكر في القرآن، ولذلك يؤثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: (لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى)108. وقال ابن مسعود: (من أراد علم الأولين والآخرين فليثوِر القرآن)109.

وهذا الرأي الذي ذهب إليه الكاتب لا يوافقه عليه أحد من سلف الأمة ولا من العلماء الأجلة، وإذا علمنا أن الوحي هو في الأصل خطاب إلى الناس جميعا، وأن الناس تتفاوت مقدراتهم في العلم والفهم، ومن ثم تتباين مقادير فهمهم للقرآن، فيعطي الله كلا منهم من سعته، ويمنحه من العلم ما يشاء، ومن ثم تتباين كتب التفسير من شخص لآخر، ومن عهد إلى آخر، فإن هذا لا يعني أنه إسقاط لفهم بشري على الوحي الإلهي، لأن التفسير لا بد له من منهج يرتكز إليه، وأدلة يقوم عليها، سواء كانت من المأثور أو المعقول أو اللغة. وإنما يصح ادعاء الكاتب في حالة واحدة فقط لو كان المفسر يفسر بلا منهج قويم، ويعمل رأيه في الآية بغير دليل، فهذا هو الإسقاط البشري على الوحي الإلهي، وهذا لا يتم إلا إذا ألغينا كتب التفسير، وبدأ كل واحد يفهم القرآن على طريقته الخاصة، وهو ما دعا إليه الكاتب من حيث لا يشعر!.

بقيت مسألة عدم الحاجة إلى كتب التفسير، فمعلوم أن النحو أيضا لم يكن موجودا في عصر الصحابة، وكانوا يتكلمون العربية الفصحى بسليقتهم من غير حاجة إليه، ثم اقتضت طبيعة الحياة، وتطور الظروف والأحوال، والاحتكاك بالأمم الأخرى إلى تدوين العلوم، ومن بين هذه العلوم: النحو والتفسير وغيرها، وتدوين العلوم هو ما نفخر به في تراثنا الإسلامي، وإلا لضاعت واندثرت مآثرنا العلمية كلها، فالقول بعدم وجود التفاسير في عهد الصحابة لا يعني عدم الحاجة إلى هذه التفاسير، لأن الصحابة كانوا يفسرون القرآن للناس ولكن لا يكتبون، فجاء من جمع ما نقل عنهم في هذا الصدد وعن النبـــي صلى الله عليه وسلم، وسمي هذا بالتفسير بالمأثور، ثم نشأت بعد ذلك مدارس التفسير الأخرى.

---

108 – الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (126/2).

109 – البرهان في علوم القرآن، للزركشي، خرج أحاديثه مصطفى عبد القادر عطا، (171/2).

ثم إننا لنتساءل: هل يعني عدم وجود الشيء في عصر الصحابة عدم مشروعيته؟ لقد كان أكثر الصحابة أميين لا يعرفون الكتابة، ولا الرياضيات، ولا الكيمياء، وفتحوا العالم بجهادهم، فهل نستطيع اليوم أن نحقق بعض ما أنجزوه في خدمة الدين الحنيف بمعزل عن هذه العلوم وغيرها من علوم العصر الحديث؟ إنها دعوى خطيرة يراد منها حرمان الأمة الإسلامية من جهود علمائها السابقين، وعدم الاستفادة من الدراسات القرآنية، والتشكيك بكل الدراسات الجادة التي قامت لخدمة الوحي الإلهي المقدس.

خامسا: السلبية من علوم التنـــزيل:

من الطبيعي أن يقف الكتاب المحدثون موقفا سلبيا من علوم التنزيل، طالما وقفوا موقفا سلبيا من علم التفسير بالأصل، من ذلك موقفهم من أسباب النزول، يقول أحدهم: (وليس يهمنا سبب النزول كما هو شأن المفكرين التقليديين في التفسير، ولكن يهمنا موقع الآية ضمن إعادة ترتيب آيات الكتاب كما أمر بها الرسول في آخر أيامه).[110]

ويقف آخر موقفا سلبيا من مفهوم النسخ، يقول: (ويلاحظ الدارس المسلم اليوم، أن مفهوم النسخ بوضعه التقليدي، قد تعرض لعدد من مبادئ أساسية في الوحي والرسالة بالإلغاء، وقصر مجالات الرسالة وأبعادها على آخر ما نزل من النصوص، وما اقتضته ممارسات الرسول صلى الله عليه وسلم وحاجة المسلمين على العهد المدني الثاني، ومن أمثلة الآثار السلبية للنسخ بهذا المفهوم قضية العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين، وما يترتب على ذلك من مفاهيم في الدعوة والعلاقات الدولية الحضارية، وكذلك قضية علاقة المرحلة المدنية بالمرحلة المكية، وما يمكن أن ينشأ بينهما من علاقة التناسخ، وأثر ذلك على عمل الدعوة الإسلامية والتشريع الإسلامي، واستراتيجيات العمل السياسي في هذا العصر. ففي مجال العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين، نجد أن آية السيف: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) التوبة/5، تمثل نموذجا واضحا للآثار السلبية للسائد في منهج النسخ التقليدي، فآية السيف نزلت في نهاية العهد المدني الثاني، والمسلمون يتمتعون بالقوة والغلبة،

[110] – العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، ص (136)، دار المسيرة.

وذلك في مواجهة مشركي العرب، الذين بالغوا في عداء المسلمين، والاعتداء عليهم ونقض عهودهم، رغم انقضاء ما يزيد على عشرين عاما من الدعوة والمسالمة والبر والصبر من المسلمين ودولتهم، فأمر القرآن الكريم بقتال المشركين القساة الكواسر، الذين مازالوا يعيشون بدائية اجتماعية وحضارية، وأخذهم بالقوة والعنف والإذلال، حتى يخضعوا للإسلام ويدخلوا في مجتمع حضاري منظم، فيصلح حالهم وتهذب نفوسهم، وينتهوا عن عدوانهم، ويكفوا أذاهم وقسوتهم وعدوانيتهم الناجمة عن بدائية تكوينهم الاجتماعي عن أنفسهم وعن الإسلام والمسلمين، وهنا نجد مفهوم النسخ في المنهجية التقليدية لا يستخلص الدلالة التنظيرية المطلوبة من مجالها الذي تعلقت به وهو الإصلاح والتهذيب وأخذ الظالم المعتدي بالقوة الرادعة، ولكنه ينتهي إلى مجالات الدعوة كافة، وعلاقات التعامل والحوار مع غير المسلمين جميعا في كل الأحوال... وهذه القضية وما انتهت إليه من نتائج عديدة تعرضت لمختلف جوانبها بقدر وافر من التفصيل في كتابي [نظرية الإسلام في العلاقات الدولية: توجهات جديدة في الفكر والمنهجية الإسلامية]، وانتهيت إلى أن مجرد تعارض الأحكام والنصوص الظاهرة لا يعني بالضرورة ولا في الغالب النسخ والإلغاء، ولكن يعني أن الحياة الإنسانية في أوضاعها المختلفة تحتاج إلى مواقف وأحكام مختلفة، وكلما تحققت العلاقات والشروط والظروف الموضوعية لحكم أو توجيه بعينه، كان الحكم والتوجيه المعني هو الحكم والتوجيه الملزم للمسلم)[111].

ثم يقرر الكاتب النتيجة التالية: (إن مفهوم النسخ بأن آخر ما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم وآخر ما نزل من القرآن قد ألغى ونسخ ما سبق من تشريع وتنزيل وأحكام، إنما هو في الحقيقة إلغاء لمعنى ختم الرسالة وأبدية توجهها، بل ودفعها إلى أضيق السبل)[112]. ولكن الكاتب لا يلبث أن يتراجع إلى حد ما عن موقفه هذا، فيقول بعد قليل: (لا نشك أن هناك نصوصا نسخت نصوصا أخرى، كما أننا لا نشك أن الدين والرسالة جسد واحد متكامل قد تم بلاغه للناس ويلزمهم اتباعه لما فيه مصلحتهم في الدنيا والآخرة).[113]

---

[111] – أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، ص(88-90).

[112] – أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، ص(90).

[113] – أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، ص(91).

وما ذهب إليه الكاتب كان قد قرره العلماء من قبل، إن علماء المسلمين قد أدركوا قاعدة تغير الأحكام بتغير الأزمان، يقول ابن كثير عند قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين)114: (أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، و لم تزل الفتوحات كثيرة، و لم تزل الأعداء في سفال وخسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يُمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله، والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم).115

فهو بهذا النص يبين أن تطبيق الآية يكون بحسب الاستطاعة لتغير الظروف عما كانت عليه في القرون الثلاثة الأولى. كما أشار ابن كثير إلى أن آية السيف لم تنسخ ما قبلها من آيات السلم، فقال عند قوله تعالى: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم)116: (وإن جنحوا: أي مالوا، للسلم: أي المسالمة والمصالحة والمهادنة، فاجنح لها: أي: فمل إليها، واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر، وقال عبد الله بن الإمام أحمد، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثني فضيل بن سليمان يعني النميري، حدثنا محمد بن أبي يحيى عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إنه سيكون اختلاف، أو أمر، فإن استطعت أن يكون السلم

---

114 – سورة التوبة، الآية (123).

115 – تفسير القرآن العظيم، (441/2).

116 – سورة الأنفال، الآية (61).

فافعل]. وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة. وهذا فيه نظر، لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله، وقال ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة [قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر] وفيه نظر أيضا، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفا، فإنه يجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبـــي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم)117.

فما بذله الكاتب من جهد كبير لإثبات أن آية السيف لم تنسخ آيات السلم جهد طيب للذود عن الإسلام، وللتأصيل للعلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم، بيد أنه له لو رجع إلى تفسير ابن كثير لوجد أن ابن كثير قد سبقه إلى هذا الرأي، فقد تبنى ابن كثير القول بأن آية السيف لم تنسخ آيات السلم، وهذا مما يعاضد رأي الكاتب ويسانده من جهة، ومما يدلل على أن الاجتهاد ودراية الواقع أمر قائم عند علماء المسلمين عبر العصور، لذا فقد عارض ابن كثير رأي ابن عباس كما رأينا، ولكن هذا لا يعني بالضرورة نفي فكرة النسخ من القرآن والذي كان الكاتب قد أقر به.

ويقول كاتب آخر: (نحن لا نأخذ بالنسخ، ولا بأسباب النزول، ولا غيرهما مما يفتات على القرآن). 118

هكذا وكأن القضية في التعامل مع القرآن قضية هوى، ماذا نأخذ وماذا لا نأخذ، وإذا كان لا يأخذ بأسباب النزول فكيف سيفسر لنا قصة الإفك، وسورة تبت، والمجادلة، وغير ذلك؟. وإذا كان يرفض النسخ فهل له أن يفتي الناس بشرب الخمر في غير أوقات الصلاة؟، لأن الله قال: (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون)119. فإذا لم تكن هذه الآية منسوخة، فإن شرب الخمر في غير أوقات الصلاة يقتضي الإباحة. والعياذ بالله من أم الخبائث.

---

117 – تفسير القرآن العظيم، (2/356-357).

118 – ما بعد الإخوان، جمال البنا، ص(146).

119 – سورة النساء، الآية (43).

وينقد أحدهم مؤهلات دراسة القرآن والسنة، يقول: (وأول الأصول الأساسية هما الكتاب الكريم والسنة النبوية، وأهم ما يلاحظ على مفهوم هذين الأصلين الأساسيين أن مؤهلات دراستهما والنظر فيهما في إطار المنهج التقليدي هي مؤهلات لغوية نظرية تاريخية، تجعل الدراسة العلمية الإسلامية فيهما دراسة نظرية وما يخالطهما من فهم ودراية بالواقع وإمكاناته وحاجاته وتحدياته هي قضية ثانوية).[120]

ويبين السبب النفسي الذي جعل المسلم لا يجرؤ على إمعان النظر في مقدساته، يقول: (كذلك مما ساعد على غبش الرؤية الإسلامية المعاصرة تلك العوائق النفسية التي روضت العقل المسلم ترويض الحيوانات الكاسرة، فلا يجرؤ على إمعان النظر التحليلي في تراثه ومقدساته، بالقدر والعمق المطلوب لكي يدرك كنهها وموضع اللباب منها).[121]

وإمعان النظر التحليلي في التراث مطلوب، ولكن في المقدسات فيه نظر!، فأما بالنسبة للقرآن فلا مجال فيه، وأما السنة، فالصحيح منها لا ينبغي إعادة تصحيحه من جديد عبر العصور، وإلا سنبقى إلى يوم القيامة في دوامة، ولا شغل لنا إلا تصحيح السنة الصحيحة، ولا ينبغي أن يكون هذا هو الشغل الشاغل للأمة بأسرها، ولكن يدركه المختصون به، وإنما ينطبق كلام الكاتب على الأحاديث الضعيفة، وأقوال الصحابة لا أكثر. بيد أن بعض هؤلاء الكُتاب يريدون إعادة النظر في الكِـــتاب ذاته، وفي السنة الصحيحة كما تقدم، وهنا مكمن الخطورة، لأن هذا سيزعزع ثوابت الإسلام، ويقتلعها من سنخها، بما يثيرونه من شكوك وشبهات، وأما حكاية دراية الواقع وإمكاناته فقد عني بها العلماء، ولكن ينبغي أن نعي بأن الواقع متغير من بلد لآخر، ومن وقت لآخر، لذلك لا يمكن اعتباره مصدرا للتفسير لكي يدرس مع علوم الشريعة واقع كل بلد وكل أمة في كل وقت، ولذلك تعتبر دراسة السيرة النبوية هي النموذج الأمثل لدراسة التعقيدات والتحديات التي واجهها النبـــي صلى الله عليه وسلم في حقل الدعوة، والمفسر أو المحدث يستمد من حياة النبـــي صلى الله عليه وسلم ما يناسب عصره وواقعه، كما يعتبر التاريخ الإسلامي سجلا ضخما للتجارب الإنسانية التي ينبغي على المفسر الإلمام بها، وكذلك تجار الأمم والشعوب. وكتب علم الاجتماع، ووسائل

---

[120]- أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، ص(77).

[121]- أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، ص(50).

الإعلام المعاصرة تمد المفسر والدارس للدين بدراية كبيرة حول واقعه، وماذا يجري من حوله، ولذلك نحن لا نعتقد بأن تجاهل الواقع أمر ممكن في الدعوة في هذا العصر، ولا نعتقد أن العلماء يتجاهلون دراسة الواقع وتحدياته، ولكن يجب أن نفرق بين تحديهم للواقع الذي يدعو إلى الانجراف من الدين والقيم، فيثبتون على الحق وكأنهم يرفضون الواقع، وبين انزلاق بعضهم بفتاوى تحلل للناس ما حرم الله، وتجيز للناس تعدي حدود الله تحت شعار الواقعية وفهم الواقع، وهذا منهج مرفوض من الدين ذاته، ومن جهابذة أهل العلم في كل عصر ومصر.

ولكن يبدو أن نظرية إعادة النظر في المقدسات قد لقيت صدى عند بعضهم، فأعيد طرح قضية أكل الدهر عليها وشرب، وهي علاقة الوحي بالعقل، حيث يرى أحد الكتاب ضرورة تقديم العقل على النقل عند التعارض وعدم إمكانية التوفيق، لأن (النظر العلمي يقتضي إلحاق الجزئي بقاعدة كلية، فإن تعذر نظرنا في إمكان تعديل القاعدة الكلية لدفع التعارض بين الكلي والجزئي، فإن تعذر فلا مفر من التوقف باعتبار الجزئي واستمرار العمل بالكلي، أي التوقف في النص، واعتماد منظومة القواعد الكلية التي تشكل البنية الداخلية لعقل الناظر في النص).[122]

وقضية تقديم العقل على النقل مطروحة من أيام المعتزلة، ونحن لا نرى إقحام العقل في قضايا الإيمان بالغيب، وصفات الله، والمتشابهات، لأن العقل محدود العلم، وما يجهله أكثر مما يعرفه، فلا ينبغي لـــه أن يتدخل فيما يجهله، لأنه سيقود إلى نتائج غير سليمة. ونضرب لذلك مثلا: لو أن إنسانا قبل ألف عام قال إن البشر سيطيرون من شرق الأرض إلى غربها في يوم واحد، لاتهمه الناس بالجنون، فالعقل لا يقول بإمكانية ذلك، أما اليوم فمن أنكر ذلك يتهم بالجنون، فإذا كان العقل عرضة لتغيير أحكامه في أمور الدنيا بين الأمس واليوم، فهو أكثر عرضة لتغيير آرائه بالنسبة للدين، يؤكد هذا أن الله تعالى كلما بعث نبيا، وأصلح الناس، قام الناس بعد رحيل نبيهم بتغيير المنهج وتحريف الرسالة، وهم يعتمدون في ذلك على ما تكن به نفوسهم ويخطر في عقولهم، ولو أنهم التزموا بما أنزل الله إليهم و لم يحرفوا و لم يبدلوا لبقي المنهج سليما، وساد الإصلاح، فالعقل قد يضل أو يتبع الهوى، وليست جميع العقول مستنيرة. ثم إن ما يقبله عقل واحد من الناس قد يرفضه عقل

---

[122] – الوحي والعقل، بحث في إشكالية تعارض العقل والنقل، د. لؤي صافي، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (11) شتاء 1998م، ص (70).

آخر منهم، وأما إذا اتفق جميع العقلاء على رفض شيء فهذا من باب أولى أن يرفضه الدين، لذا نحن لا نرى وصاية للعقل على النص، بل نرى وصاية النص على العقل، والحقيقة العلمية عندنا ليست تلك التي تؤيد الدين، بل تلك التي يؤيدها الدين، لأننا نرى أن كل ما ثبت بالوحي هو حق اليقين، سواء أدركت عقولنا ذلك أم لم تدركه، وهذا هو الصواب الذي عليه جمهور الأمة، ومن تنكب عن هذا الطريق فقد ابتعد عن الصراط المستقيم.

المبحث الثاني:

الموقف من السنة النبويـــة

أولا: مقدمة:

رفض المحدثون التعريفات التقليدية للسنة، وابتكروا تعريفات منها: تعريف السنة: (هي منهج في تطبيق أحكام أم الكتاب بسهولة ويسر دون الخروج عن حدود الله في أمور الحدود أو وضع حدود عرفية مرحلية في بقية الأمور، مع الأخذ بعين الاعتبار عالم الحقيقة الزمان والمكان والشروط الموضوعية التي تطبق فيها هذه الأحكام).[123]

والسنة تطبيق للقرآن في واقع نسبي محدد، ولذلك دعا أحدهم إلى (اكتشاف الوحدة البنائية في القرآن الكريم، وقراءته باعتباره معادلا للكون وحركته، واعتبار السنة النبوية الصادرة عن المعصوم صلى الله عليه وسلم تطبيقا لقيم القرآن وتنزيلا لها في واقع معين، والنظر إليها كوحدة في ذاتها متحدة مع القرآن، بيانا له وتنزيلا لقيمه في واقع نسبي محدد).[124]

وطالما أن السنة تطبيق للقرآن في واقع محدد، وقد تغير الواقع اليوم عن حاله بالأمس، لذا (علينا اعتبار كل الأحاديث المتعلقة بالحلال والحرام والحدود التي لم يرد نص فيها في الكتاب على أنها أحاديث مرحلية مثل الغناء والموسيقى والتصوير، واعتبارها أحاديث قيلت في حينها حسب الظروف السائدة، وعلينا أيضا اعتبار كل أحاديث الغيبيات التي لا تنطبق مع القرآن مثل عذاب القبر والروح على أنها سر الحياة، على أنها أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وعدم الأخذ بها).[125]

وهذا الموقف يقود إلى إنكار كل حديث من السنة لا يوافق هوى النفس، فقد أورد أحـــــدهم الحديث التالي) : لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)، وقال عقبه: (ولكن في الحياة الآخرة يوجد في الجنة حور عين للجماع، والرجل ليس بحاجة إلى أن يخدمه

---

[123] – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (549).

[124] – مجلة إسلامية المعرفة، العدد 19، شتاء 1420هـ/1999م، ص (15)،مقال د.طه جابر العلواني.

[125] – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (572).

أحد في الجنة(قطوفها دانية) الحاقة/23، ففي هذه الحالة الرجل ليس بحاجة إلى المرأة، فأرسلها إلى النار معتمدا على الحديث: (أريت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع وأريت أكثر أهلها من النساء) البخاري ج2 ص93، هذان الحديثان يناقضان كل ما أوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم في الكتاب شكلا ومضمونا، وقد شرحت في مفهوم الأزواج في الجنة مفهوم الحور العين، وقد قلنا إن آيات الجنة والنار هي من الآيات المتشابهات).126

وهذا اتهام باطل لأهل العلم بوضع الحديثين، فالحديث الأول فيه بيان فضل الزوج الذي يتحمل أعباء الأسرة، وهناك أحاديث كثيرة في فضل المرأة أيضا، ويكفي في هذا الصدد الآثار المروية بأن الجنة تحت أقدام الأمهات، وأن الأم مقدمة في البر على الأب، وأن خير ما يكتر المرء المرأة الصالحة. والثاني ذكر فيه أن أكثر أهل النار النساء، ومعلوم أن ما تجاوز نسبة 50% بقليل يكون أكثر من الآخر، فهل ينبغي أن يتساوى عدد الداخلين إلى النار من الجنسين؟ أم ينبغي أن يكون حظ الرجال من النار أكثر؟ إن الأمر لا يعدو قضية غيبية، لذا لا ينبغي التعامل مع قضايا الغيب بهذه السذاجة من التأويل، ثم من أين للكاتب أن يدعي بأن الحور العين ستخدم الرجال في الجنة فلا حاجة لهم بنساء الدنيا؟! إن المرأة في الجنة، أو الحور العين لا تعمل ولا تخدم، فهنالك غلمان مخلدون يقومون بوظيفة الخدمة، أي الخدمة في الجنة على عاتق الذكور وليس الإناث، وقد ثبت في الآثار النبوية بأن المرأة التي تدخل الجنة تكون أكرم وأجمل من الحور العين، فلا ينبغي للكاتب أن يبتز النساء بهذا الأسلوب، ليثير سخطهن على دينهن، فيكون قد أسهم فعلا في جعلهن أكثر أهل النار.

أمر آخر نود أن ننبه إليه هنا، هو أن الثابت أن نسبة النساء في العالم أكثر من الرجال، وقد يكون الفارق بينهما قليلا كما في بعض البلاد العربية، أو كثيرا كما في جنوب شرق آسيا، فإذا كانت نسبة النساء أكثر، فإن هذا يقتضي أن يكون عدد من يدخلن النار أكثر من عدد الرجال، هذا لو افترضنا أن النسبة متساوية فيمن يدخل النار من الجنسين، والله أعلم.

126 – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (596).

ثانيا: افتعال الخلاف بين القرآن والسنة:

يذهب أحد الكاتبين إلى أن هنالك خلط بين القرآن والسنة، يقول:(ويلاحظ على دراسات الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة في إطارها التقليدي الخلط بينهما، والجدل على موضع كل منهما، وعلاقتهما فيما بينهما، حتى لا يكاد يوجد إدراك موضوعي واضح حاسم لدور متميز لكل منهما ولعطائه الخاص، وبذلك سطرت على دراستهما المعاصرة مفهوم التقليد التاريخي وفكرة النسخ).[127]

وهذا كلام إنشائي يعوزه الحجة والبرهان، فلا أحد من المسلمين ينكر أن القرآن مقدم على السنة، وأن السنة تلي القرآن في الأهمية. بيد أن أحد الكتاب نسب ذلك إلى الشافعي، فقال: (واستمر رد الحديث أو التوقف فيه عند تعارضه مع القواعد القرآنية، إلى أن قام الإمام الشافعي بتأسيس الحديث كمصدر مستقل بذاته، لا كمصدر تابع للكتاب، ففي كتابه الهام الرسالة، جعل الشافعي السنة مصدرا تشريعيا مستقلا، وذلك بإعطائها خاصية ثالثة إضافة إلى الخاصيتين اللتين أجمع عليهما علماء السلف قبله: متابعة أحكام الكتاب وتبيين مجملها، الخاصية الثالثة التي أثبتها الشافعي: هي إنشاء حكم لم ينص عليه الكتاب، أو بتعبير الشافعي: [ما سن رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب]، دلل الشافعي على خاصية إنشاء الأحكام التي تتمتع بها السنة، بالإشارة إلى الأحاديث التي تأمر برجم الثيب الزاني ...ليكرس بذلك استقلال الحديث، ويرفع مرتبته إلى مرتبة القرآن الكريم).[128]

ويرفض الكاتب ما زعم نسبته إلى الشافعي من مساواة السنة للكتاب، ثم يقرر: (لا بد من فكرة تبعية الحديث للكتاب، ورفض فكرة استقلاليته، وبالتالي فإن قبول متن الحديث الصحيح، أو التوقف فيه، مرهون بموافقته للقواعد والمبادئ العامة المستخرجة من عملية استقراء النصوص، كما

---

[127] – أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، ص (77).

[128] – العقيدة والسياسة، د. لؤي صافي، ص (41).

أوضحنا سابقا، لذلك لا يصح الاستدلال على شرعة بنية أو ممارسة سياسية بالاستناد إلى أحاديث منفردة، أو حتى آيات منفردة).129

وهذا سوء فهم لنص الشافعي، فالسنة ليست بمنزلة الكتاب لا عند الشافعي ولا غيره، وإنما هي وحي منزل من الله عند جمهور العلماء كما سيأتي الحديث عن ذلك فيما بعد، وطالما أنها وحي، فهي مصدر مثل الكتاب في التحليل والتحريم، وليست مثله في الفضل والرتبة والأهمية، ومن قرأ كتب السنة يستطيع التأكد من ذلك، فكم من أمور وأحكام وردت في السنة و لم ترد في الكتاب، خذ مثلا علامات الساعة الكبرى من خروج دجال، ونزول المسيح عيسى، وخروج الشمس من مغربها، وغيرها، وتحريم الذهب والفضة على الرجال، وتحريم الأكل في الوعاء المنقور وغير ذلك، فهذه كلها أمور وأحكام موجودة في السنة دون الكتاب، ولكن يمكن ردها إلى عموم ما أمر به الكتاب، بمثل قوله: (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث)130. وقوله: (ويعلمهم الكتاب والحكمة)131، وبهذا الإطار فكل ما ورد في السنة أصله يرجع للقرآن.

ومن المستغرب أن يدعي الكاتب بأن الإيمان بالقدر ورد بالسنة دون القرآن، يقول: (وتحدد مقومات الإيمان كما تعرضها نصوص الكتاب في خمس: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر... وتضيف نصوص الحديث مقوما سادسا إلى مقومات الإيمان، فتشترط الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى، كما ورد في حديث جبريل إذ سأل رسول الله عن الإيمان، فأجاب: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)132.

وهذا مخالف للحقيقة، فقد ورد الإيمان بالقدر في القرآن الكريم، قال تعالى: (إنا كل شيء خلقناه بقدر)133. ومن عجب أن لا يعرف الكاتب ذلك، أم يعرفه ويتجاهله؟.

---

129 – العقيدة والسياسة، د. لؤي صافي، ص (42-43).

130 – سورة الأعراف، الآية (157).

131 – سورة آل عمران، الآية (164).

132 – العقيدة والسياسة، د. لؤي صافي، ص (52-53).

133 – سورة القمر، الآية (49).

ويذهب كاتب آخر إلى افتعال الخلاف بين القرآن والسنة من أجل التشكيك بالسنة، ومن ثم نسف السنة برمتها، من ذلك موقف القرآن والسنة من التماثيل والنحت، يقول: (وقد لخص القرطبي في تفسيره حجج وبراهين الطرف المجوز لصناعة هذه الجماليات المجسدة، والملاحظ هنا أن حجج المجوزين تعتمد على القرآن وفيما رواه عن سليمان وعيسى، وحجج المحرمين تعتمد على أسانيد الأحاديث وأهمها الحديث المنسوب إلى الرسول برواية ابن عمر وهو حديث متفق عليه في قوله: [الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم أحيوا ما خلقتم] وما روي مرفوعا إلى الرسول عن ابن عباس: [من صور صورة عذبه الله يوم القيامة، حتى ينفخ فيها الروح وما هو بنافخ] هنا نجد فارقا كبيرا بين ما أتى به القرآن، وما أسنده الرواة إلى الرسول، وكان بإمكاننا حل المسألة في هذه الحدود، بتكذيب مسندات الأحاديث لأنها متعارضة مع نص قرآني، والرواة كما نعلم ليسوا أنبياء، مهما تحققوا من مصادر الإسناد، ولكننا نتجه إلى الأمر بشيء من التحليل)[134]، ويضيف عقب ذلك: (ولكننا نتساءل: كيف أمكن دس هذا الحديث بإسناد قوي إلى الرسول، وكيف تقبله علماء السلف، وجزموا به، إن صحة هذا الحديث لا تقل عن صحة الحديث المنسوب إلى الرسول حول تناول المصحف، وكلاهما باطلان من الأساس لغويا وبلاغيا، لا يمكننا البحث عن مبررات خارج البيئة الروحية التي نشأ فيها الإسلام، وخارج التأثير التلمودي على بعض المفسرين).[135]

ويجاب على هذا الكلام بأن القضية ببساطة هي أن شرع من قبلنا ليس شرعا لنا وهذا مقرر عند العلماء. فلا مواجهة بين القرآن والسنة، لقد قال الله تعالى لليهود: (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم)،[136] فهل من شروط التوبة في ديننا أن نقتل أنفسنا؟ ليس كل ما ذكر في القرآن عن أحوال الأمم الماضية ليس من أجل أن نقتدي بهم في التشريع، وإنما لكي نأخذ منهم العظة والعبرة.

ويقرر أحدهم حول السنة النبوية أحكاما بغاية الصرامة، فهي محرفة ومن صناعة اليهود وأعوان السلاطين!، يقول: (وتكررت المأساة بالنسبة إلى السنة بل زادت، لأن الله حفظ القرآن من

---

[134] – العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، ص (240)، دار المسيرة.

[135] – العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، ص (242-243)، دار المسيرة.

[136] – سورة البقرة، الآية (54).

التحريف، ولكن السنة تعرضت لأسوأ أنواع التحريف والوضع، والرواية بالمعنى...إلخ، بحيث إن المسلمين عندما أخذوا بها ظانين أنهم يأخذون ما قرره الرسول، فإنهم في أغلب الحالات أخذوا بشيء آخر قرره اليهود أو أعداء الإسلام أو حاشية السلطان). 137

ويمضي ليثير الشكوك حول السنة النبوية من جديد، فيقول: (ففي غيبة شخص الرسول، يصبح الأمر نقولا وروايات تتضمن الغث والسمين، والضابط الوحيد للتمييز بينها هو العقل الخليفة الوحيد المؤتمن عند غيبة الرسول، دق هذا كله على الأسلاف، فمضوا في تطبيق المنهج الذي وضعوه، وعززت ذلك عوامل سياسية عديدة، وعندما قطعوا شوطا في هذا أخذت العودة إلى القرآن تتقلص لحساب السنة، ثم أغلق باب الاجتهاد، فأصبحت السنة هي المسيطرة على الفقه الإسلامي، القضية في السنة أن الشبهات تكتنفها وتحيط بها في مجال الثبوت والدلالة).138

وينعى الكاتب على الدعوات الإسلامية أنها (ترى أن كل ما صدر عن الرسول سنة ملزمة).139

وهذا الكلام لا يصمد أمام البحث، فهو يقرر أن السنة صنعها اليهود أو أعداء الإسلام فمن أين استقى هذا؟ وما هي أدلته؟ إن تقرير مثل هذه النتيجة يحتاج إلى دراسة مفصلة تقوم على مقدمات وأسس منهجية وبحث واستقراء واستقصاء، حتى يحكم بهذه النتيجة، ولا تكون بشطحة خيال أو فلتة قلم!. ثم من هم اليهود الذين صنعوا السنة؟ إن التاريخ يذكر أن كعب الأحبار ووهب بن منبه اعتنقا الإسلام ودخلت بعض مروياتهم في كتب السنة.. فما هو حجم مرويات هؤلاء في كتب السنة؟ وهل وجود بعض مروياتهم كاف لنسف السنة بأكملها؟ وما هو الدليل العلمي الذي يستند إليه من يشكك في إسلام هؤلاء؟ إننا إذا اعتمدنا منهج الشك فيمن أسلم وقبل المسلمون منه إسلامه، فإن هذا المنهج قد يؤدي للشك ببعض السنة، ألم يكن في المدينة منافقون من العرب؟ ألم يوجد النفاق عند رجال رؤوا الرسول وآمنوا به ثم ارتابت قلوبهم بعد ذلك فكفروا؟ ولكن رجال الحديث النبوي أو المحدثين قرروا بموضوعية عدالة كل الصحابة، و لم يأخذوا بمرويات المنافقين والفسقة، ودرسوا أحوال الرواة جميعا وميزوا بينهم، وأراحونا من المشكلة عندما صنفوا الحديث

---

137 – ما بعد الإخوان، جمال البنا، ص (109).

138 – ما بعد الإخوان، جمال البنا، ص (110).

139 – ما بعد الإخوان، جمال البنا، ص (111).

إلى صحيح وضعيف وموضوع، فطالما قبل المحدثون عدالة الصحابة والتابعين ممن أسلم وكانوا على الشرك قبل ذلك، فكيف لا يقبلون عدالة الرواة من أهل الكتاب بعد ذلك، إذا أعلنوا إيمانهم، وشهد المسلمون لهم بذلك، قال تعالى: (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) 140. وامتدح القرآن موقف الراسخين في العلم من اليهود الذين يتبعون الحق، قال تعالى: (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك)141، إذا لا غضاضة على المفسرين والمحدثين في نقل مرويات الصادقين من أهل الكتاب، ولا يجوز تفسيق الناس واتهامهم بناء على الظن، فالظن هو أكذب الحديث.

ثم من هم حاشية السلطان الذين قرروا السنة؟ إن اتهام أعوان السلطان بوضع السنة هو اتهام باطل، فإن أكابر علماء السنة لم يكونوا على وفاق مع أهواء السلاطين، وقد تعرض البخاري بسبب خلافه مع أمير بلده إلى النفي والخروج من الوطن، والقضية باختصار هي أن البخاري رفض إعطاء دروس خاصة لأبناء أمير بلده في القصر، وأصر على أن يعطيهم مع عامة المسلمين في المسجد، وتعرض الإمام أحمد بن حنبل للسجن بسبب قضية عقدية أقحم الخليفة نفسه فيها، وظن أن سلطان السياسة فوق سلطان العلم، ولكن الإمام أحمد قلب المعادلة، ومات (الإمام أبو حنيفة في السجن دون أن يقبل تولي القضاء لسلطة سياسية غير ملتزمة، وليضرب الإمام مالك حتى تشل يده، لِـــما جهر به من فتوى بطلان طلاق المكره، وما كان لهذه الفتوى من دلالة سياسية سلبية على خلخلة قبضة السلطة السياسية القائمة...وكان نصيب الشافعي الهرب من حاضرة السلطان في بغداد، بعد أن سيق إليها مكبلا من اليمن لخوف السلطة من فكره ونشاطاته السياسية حتى لجأ إلى مصر تلك الحاضرة البعيدة عن مركز السلطان طلبا للسلامة والنجاة)142

ونحن نوافق الكاتب في أن العقل هو الخليفة المؤتمن بعد الرسول، بل وفي حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، فالعقل هو أساس التكليف الشرعي، وحجة الله على عباده، ولكن يجب أن نبين أن

---

140 – سورة آل عمران، الآية (199).

141 – سورة النساء، الآية (161).

142 – أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، ص (48).

المقصود بالعقل هنا ليس مجرد الهوى، فنستحسن حديثا ونرفض آخر بدون منهجية علمية، وإنما ينبغي أن ينضبط القبول والرفض وفق منهجية علماء الحديث والرواية والتاريخ، في إثبات صحة الحديث سندا ومتنا، فلا يكفي صحة السند لإثبات صحة المتن دائما، وعلى هذا جرى المحدثون الأوائل، فمثلا إذا عارض الحديث الصحيح سندا، نصا قرآنيا، أخذنا بالقرآن وليس بالحديث، وهكذا فيما لو عارض حقيقة علمية ثابتة أو تاريخية.

ولا ننكر أن السنة تعرضت للدس والتحريف، ولكن الله قيض لها الجهابذة من العلماء، فميزوا بين الصحيح والمنحول، وما كان الله ليضيع للناس سنة نبيهم، وهي التطبيق العملي للمبادئ القرآنية الخالدة، قال تعالى: (وإنك لعلى خلق عظيم)143. وكيف نعرف عظمة الخلق المحمدي الكريم إلا من خلال الأحداث التي عايشها، ومعاملته للعدو والصديق والصغير والكبير، مما لا نجده مفصلا إلا في كتب السنة النبوية.

أما مسألة سيطرت السنة على الفكر الإسلامي على حساب القرآن، فهي دعوى توهم أن ثمة اختلاف بين مقاصد القرآن والسنة، وهذا غير صحيح، والحق أن حفاظ السنة كلهم يبدؤون بحفظ القرآن أولا، ويستشهدون به خلال شروحهم للسنة، فليس ثمة فصام بين الكتاب والسنة في مناهج البحث العلمي عند المسلمين ولا في تفكيرهم.

وأما ما ذهب إليه الكاتب من سيطرة السنة على الفكر الإسلامي في العهود الأخيرة فهو غير صحيح، لأن الذي سيطر على الفكر الإسلامي في العهود الخيرة هو الجمود والتخلف والبدع والخرافات، وليس السنة النبوية الصحيحة.

ثالثا: أول من أنكر السنة:

والكتاب المحدثون ليسوا أول من أثار الشبهات حول حجية السنة، فأول من بدأ بإنكار السنة هم الخوارج، قال الإمام ابن تيمية: (وأصل مذهبهم تعظيم القرآن، وطلب اتباعه، ولكن خرجوا عن

143 – سورة القلم، الآية (4).

السنة والجماعة، فهم لا يرون اتباع السنة، التي يظنون أنها تخالف القرآن كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك فضلوا).144

وقد تبعتهم الفرق بعد ذلك، قال الحافظ ابن عبد البر: (أهل البدع أجمع أضربوا عن السنن،وتأولوا الكتاب على غير ما بينت السنة، فضلوا وأضلوا نعوذ بالله من الخذلان).145

فالكتاب بحاجة إلى السنة التي فصلت أحكامه وشرحت آياته، وقد روي عن مكحول قال: (الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب).146 ومعنى العبارة أن السنة مفصل فيها كل شيء أكثر من الكتاب، وليس معناها أنها مستغنية عن الكتاب أو هي أهم منه، فالسنة لا تستمد حجيتها قبل كل شيء إلا من كتاب الله تعالى.

رابعا: حجية السنة:

إننا نعتقد جازمين أنه لا قرآن بلا سنة، ولا سنة بلا قرآن، فهما متلازمان لصلاح أمر الدين كتلازم الشمس والقمر لصلاح أمر العالم. والسنة هي الحكمة التي أنزلها الله على محمد، يقول عبد الله سراج الدين: (ومن الأدلة على سعة علمه وكثرة علومه صلى الله عليه وسلم الحكمة التي أنزلها الله عليه، قال الله تعالى: [وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة] الآية147، وقال تعالى: [واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا]148 والحكمة هي السنة الظاهرة في أفعاله صلى الله عليه وسلم وأقواله وأحواله وإقراره، كما نص على ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه في مواضع من كتبه، وهذا هو قول جمهور التابعين كالحسن البصري وقتادة ومقاتل بن حييان وغيرهم، كما نقل الحافظ ابن كثير ذلك عنهم عند قوله تعالى: [وأنزل الله عليك الكتاب

144 – مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع عبد الحمن بن قاسم النجدي، (208/13).

145 – جامع بيان العلم وفضله، (193/2) دار الكتب العلمية، بيروت.

146 – المصدر السابق، (191/2).

147 – سورة النساء، الآية (113).

148 – سورة الأحزاب، الآية (34).

والحكمة]. وإنما سميت السنة النبوية بالحكمة: لأن الحكمة تشتمل على سداد القول وصواب العمل، وإيقاع ذلك في مواقعه، ووضعه في مواضعه اللائقة به، ولا شك أن أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله وإقراره جميع ذلك هو عين الحكمة. كما أنه سبحانه سمى السنة النبوية بالميزان، حيث قال سبحانه: [الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب]149 فالميزان هنا المقرون بالكتاب: هو الحكمة المحمدية والسنة النبوية، المقرونة في الكتاب في قوله تعالى: [وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة] الآية، لأن القرآن يفسر بعضه بعضا. وإنما سميت السنة النبوية المشتملة على أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم وأحواله ميزانا، لأنها ميزان الأقوال والأفعال والأحوال، بحيث يجب على الأمة أن تعرض أقوالها وأفعالها وأحوالها على سنته صلى الله عليه وسلم، فما وافق الميزان فهو صحيح ورجيح، ومقبول ونجيح، وما خالف الميزان أي السنة فهو قبيح ومردود على صاحبه، كما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبـــي صلى الله عليه وسلم قال: [كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد] وفي قوله تعالى: [وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة] دليل استدل به كثير من العلماء المحققين، على أن السنة نزلت بالوحي، من عند الله تعالى، كما دل على ذلك أيضا قوله تعالى: [وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى]150 فإن النطق أعم من التلاوة، فلم يقل سبحانه: وما يتلو، أو: ما يقرأ عن الهوى، حتى يقال إن ذلك خاص بالقرآن الكريم، بل قال سبحانه: [وما ينطق عن الهوى] أي وما ينطق محمد رسول الله عن الهوى، [إن هو] أي: ما نطقه بذلك: [إلا وحي يوحى] يوحيه الله إليه بنوع من أنواع الوحي. وروى أبو داود والترمذي عن المقداد رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله ص [ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه]. والمراد بـــ [مثله معه]: السنة، كما ذكره جمهور كثير من العلماء، فإن الله آتى رسوله صلى الله عليه وسلم السنة النبوية، كما آتاه الكتاب وهو القرآن العظيم).151

والإسلام بمصدريه: الكتاب والسنة، يتفق مع العقل، وهو خطاب إلى العقل أولا، حيث (إن العقل الكامل هو الأصل الذي تنشأ عنه الخصال الحميدة، والمواهب الرشيدة، وبه تقتبس الفضائل،

---

149 – سورة الشورى، الآية (17).

150 – سورة النجم، الآيتان (3-4).

151 – سيدنا محمد رسول الله، شمائله الحميدة وخصاله المجيدة، ص (98-99).

وتجتنب الرذائل، وهو الذي يسلم صاحبه إلى مجامع الخير والفضل، كما ورد في حديث إسلام خالد بن الوليد، حين دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم عليه بالنبوة، قال: فرد علي السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فقال له: تعال. فأقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلا، رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير).[152]

ولا يوجد تناقض بين الكتاب والسنة والعقل أبدا، لذا ينبغي على العقل أن يخضع لنور الوحي الذي يرشده إلى مصلحة الدنيا والآخرة، حيث (إن العقل الرجيح، يلزم صاحبه بالتمسك بهذا الدين الإسلامي، لأنه دين كامل صحيح، وهو غاية بغية العقل الرجيح، كما روي عنه صلى الله عليه وسلم: [رأس العقل بعد الإيمان بالله: الحياء وحسن الخلق]، لأن الإسلام هو الدين المحكم، وهو المعقول المبرم، قال الله تعالى: [إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون][153] أي تعقلون معانيه، وأوامره ومناهيه، فتعلمون يقينا أنه لا يأمركم إلا بما هو خير لكم، ولا ينهاكم إلا عما هو شر لكم، كما قال ابن مسعود: إذا سمعت الله يقول: [يا أيها الذين آمنوا] فأرعها سمعك، فكل من استمع إلى هذا الدين وعقله، ووعاه وفهمه، لا بد أن يسلم له، ويستسلم إليه. ولما دخل الأعرابي الفطري العاقل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين له صلى الله عليه وسلم أوامر الإسلام ومناهيه، فخرج الأعرابي وأعلن إسلامه، فقال له قومه: بم عرفت أنه رسول الله؟ فقال الأعرابي: ما أمر محمد صلى الله عليه وسلم بأمر قال العقل: ليته نهى عنه. ولا نهى عن شيء فقال: ليته أمر به).[154]

خامسا: الغرض من التشكيك بالسنة:

---

[152] – سيدنا محمد رسول الله، شمائله الحميدة وخصاله المجيدة، ص (74).

[153] – سورة يوسف، الآية (2).

[154] – سيدنا محمد رسول الله، شمائله الحميدة وخصاله المجيدة، ص (75).

هناك غرض مشبوه من التشكيك بالسنة، وهو هدم الدين الإسلامي، حيث (إن التشكيك في السنة النبوية الصحيحة التي تذعن لها جماهير المسلمين، والتي أقامت صرح الفقه الإسلامي العظيم، الذي لا تملك أمة من أمم الأرض عشر معشاره، هو مثل بارز لمحاولات أعداء الإسلام في القديم والحديث، فقد أخذت هذه المؤامرة طريقها إلى عقول بعض الفرق الإسلامية في الماضي، كما أخذت طريقها إلى عقول بعض الكتاب الإسلاميين أمثال أحمد أمين في الحاضر، إنها مؤامرة لا ريب فيها، فالمستشرقون اليهود، واللاهوتيون المتعصبون يلحون عليها إلحاحا شديدا في كل ما يكتبون، وأقسام الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية توجه أنظار طلابها المسلمين إلى هذا الموضوع توجيها دقيقا، وتأبى لأي طالب منهم أن يكون موضوع رسالته الجامعية دحض الافتراءات التي يملأون بها كتبهم على السنة ورواتها).[155]

وقد عقدت مؤتمرات من أجل الطعن بالسنة، وإزاحتها عن موقعها في الفكر والعقيدة، (ومنذ بضع سنوات عقد مؤتمر للدراسات الإسلامية في لاهور بباكستان، حضره علماء مسلمون من مختلف البلدان الإسلامية، من بينهم علماء من سورية ومصر كما حضره عدد من المستشرقين، وقد ظهر للعلماء المسلمين أن هؤلاء المستشرقين هم الذين أوصوا بفكرة عقد هذا المؤتمر، ودعوا إليه عددا من تلاميذهم الفكريين في الهند وباكستان، وكان أشدهم تعصبا وأكثرهم جهلا باعترافه هو بعد أن ألقى بحثه المستشرق الكندي سميث، ولعله يهودي، وكان مما ألح عليه المستشرقون يومئذ بحث السنة والوحي النبوي، ومحاولة إخضاعهما لقواعد العلم كما يزعمون، وقد انتهى بعض تلاميذهم إلى إنكار الوحي كمصدر للإسلام، واعتبار الإسلام أفكار إصلاحية من محمد صلى الله عليه وسلم)[156].

---

[155] – السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، ص(459-460).

[156] – السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، ص(460).

سادسا: الموقف من شخص النبـــي صلى الله عليه وسلم:

نسب بعضهم إلى النبـــي صلى الله عليه وسلم أمورا لا تليق به، من ذلك قول أحدهم مشككا بأن نساء النبـــي صلى الله عليه وسلم لسن قدوة لنساء المسلمين: يقول: (إن النبـــي صلى الله عليه وسلم في زيجاته لا يعتبر أسوة لنا أبدا، وكذلك زوجاته لا يعتبرن أسوة لنساء المسلمين [يا نساء النبـــي لستن كأحد من النساء]الأحزاب /32، قال نساء النبـــي ليبين لنا أن هذا تعليم وليس تشريعا).157

وما ذهب إليه الكاتب بشأن أمهات المؤمنين غير صحيح، قال الله تعالى: (النبـــي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم)158، وهل يربي الولد إلا أمه؟ وهل يقتدي إلا بها؟ وإذا لم يقتد نساء المسلمين بزوجات النبـــي صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين فبمن يقتدين؟، بالممثلات أم الفنانات أم ملكات الجمال؟.

ويتحسر أحدهم لزواج النبـــي صلى الله عليه وسلم من عائشة وهي صغيرة السن، يقول: (كانت التجربة العربية التي نشأ ضمنها محمد تتقبل بواقعية تامة الزواج من صغيرات السن، وقد تزوج محمد عائشة بنت أبي بكر، وهي في السابعة، ونحن ننظر الآن من منطلق قيم مختلفة وكم يود بعضنا ألا يكون الرسول قد فعل ذلك، بل هناك رجال في عصرنا يبلغ أحدهم السابعة والسبعين ويقدم على الزواج من فتاة صغيرة، تعتبر ممارسة الجنس معها في عالم اليوم حلالا أو حراما أمرا غير مقبول).159

وهذا كلام مرذول طال ترداده من المستشرقين وأتباعهم، الزواج لا يكون لغرض جنسي فقط، وقد تزوج الرسول في أوج شبابه خديجة وهي أكبر منه وبقي معها حتى تجاوز الخمسين و لم يتزوج عليها، ولو كان زواجه من عائشة لغرض جنسي مع بنت صغيرة، لكان تزوج قبلها ما يريد وهو

---

157 – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (602).

158 – سورة الأحزاب، الآية (6).

159 – العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، ص (252)، دار المسيرة.

في فتوته وشبابه، لقد نقلت عائشة شطر الدين ولا سيما فيما يخص المرأة المسلمة، وشاركت في حروب بعد وفاة النبـــي صلى الله عليه وسلم مما يعزز دور المرأة السياسي في الإسلام، واستدركت على الصحابة كثيرا من مروياتهم، ولو لم تتزوج النبـــي صلى الله عليه وسلم لما كان لها هذا الشأن وهذا الدور، أما قوله إن عصرنا يرفض هذا الزواج... فعصرنا ليس حجة على شرع الله، لقد قبل عصرنا زواج الشذاذ بعضهم ببعض، وأباح الفجور مع الأطفال، والحيوانات، والدعارة بكل صورها وألوانها، مما تتقزز منه النفس، ويعف عن ذكره اللسان، فمن العار على أهل عصرنا أن يتكلموا كلمة واحدة تحط من قدر محمد الذي اصطفاه الله على خلقه جميعا، وهم غارقون في المنكرات المحرمة ولا يملك الرشيد فيهم تغييرها لأنها محمية بقوة القانون وبالعيون الساهرة!.

وأما سن عائشة عند الزواج فمختلف فيه، والمأثور أن سن عائشة عند الزواج تسع سنوات، وليس سبعا كما زعم الكاتب، وأيا كان سنها فما يهمنا أنها لم تتزوج قبل البلوغ، ولذلك عقد عليها النبي صلى الله عليه وسلم أولا وهي صغيرة، ثم أخر الزواج إلى أن كبرت. وقد دافع الأستاذ عباس محمود العقاد عن زواج النبي صلى الله عليه وسلم بها، وببقية أمهات المؤمنين، مما يغني عن إعادة الكلام وإثارة اللغط حول هذا الموضوع بمناسبة أو بدون مناسبة أحيانا[160]

وينسب الكاتب إلى النبـــي صلى الله عليه وسلم في قضية زواجه من زينب زوجة زيد بن حارثة، ما لا يصح أن ينسب إلى رجل عادي من عامة العرب، يقول: (ففي التبني تحركت نفسية الرسول باتجاه زوجة ابنه بالتبني والتحرك لا يؤثر على مقام العصمة النبوي، فقد كان من أمر يوسف أنه قد هم بها وهمت به، ولكن أحاطت به العصمة النبوية، وحين أورد الله مسألة يوسف فلم يكن ليجرح يوسف إلا في مظان العقول المشوهة).[161]

وما قاله الكاتب مرفوض، ويستبعد أن يقع من شرفاء أهل الجاهلية فكيف بمحمد ويوسف؟، ألم يقل عنترة:[162]

---

[160] – انظر فصل: زواج النبي، في كتاب: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص (168).

[161] – العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، ص (253)، دار المسيرة.

[162] – ديوان عنترة، ص (76).

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي = حتى يواري جـــــــــارتي مأواها

فكل الشبهات التي تكتنف سيرة محمد أو يوسف أو غيرهما من الأنبياء لا أساس لها من الصحة، وهي إشاعات يهودية مغرضة، ولا عجب على الذين يقتلون الأنبياء أن يلوثوا أعراضهم بألسنتهم الأفاكة، فقد قذفوا مريم، واتهموا لوطا بأنه زنا بابنتيه، وترويج مثل هذه الشائعات هو ديدنهم دائما، ولا ينبغي للعاقل أن يقع في هذا. والقصة كما قال المفسرون: (إن الله تعالى لما أراد نسخ تحريم زوجة المتبنى، أوحى إليه عليه الصلاة والسلام أن يتزوج زينب إذا طلقها زيد، فلم يبادر له صلى الله عليه وسلم مخافة طعن الأعداء، فعوتب عليه).[163]

كما نجد الكاتب يشكك في كون الإسراء بروح النبـــي صلى الله عليه وسلم وجسده، فقد (كانت عملية الإسراء فوق قدرات الروح والجسد، ولم تكن بهما بل بكيفية، ردها الله إلى نفسه).[164]

وهل الإنسان إلا جسد وروح، وماذا يبقى من الإنسان إذا هما ذهبا؟ هذا في فحواه إلغاء لفكرة الإسراء والمعراج من أساسها.

وينعت أحدهم النبـــي محمدا صلى الله عليه وسلم بالجهل، فقد كان (النبـــي صلى الله عليه وسلم كان يجهل القصص أيضا).[165]

وما عهدنا القرآن يصف محمدا بالجهل، وإنما وصفه (لاتدري لعل الله يحدث بعد لك أمرا)،[166] (وعلمك ما لم تكن تعلم).[167] والكاتب الذي ينكر الترادف في اللغة العربية كان عليه أن يعلم أن هنالك فارقا بين الصيغتين: لا تدري، وتجهل، فهما لا تؤديان نفس المعنى، فيحترز من وصف النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يليق به.

---

[163] – روح المعاني، (25/22).

[164] – العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، ص (174)، دار المسيرة.

[165] – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (76).

[166] – سورة الطلاق، الآية (1).

[167] – سورة النساء، الآية (13).

وينكر الكاتب على الفقهاء والمتصوفة تعظيم النبـــي صلى الله عليه وسلم وجعله القدوة والمثل، والتأسي الكامل به، يقول:(لقد وضع المتصوفة النبـــي صلى الله عليه وسلم في عالم المطلق من حيث الوجود، ووضعه الفقهاء في عالم المطلق من حيث التشريع، فحولوا بذلك الإسلام ورسول الله إلى خرافة من حيث الوجود، وإلى تحجر وتزمت من حيث التشريع).[168]

وهذا الكلام مخالف للحقيقة، فمحمد قدوة المؤمنين في سيرته، ومرجعهم في سنته وأحكامه وتشريعاته بنص القرآن، قال تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)[169]، وربما بالغ بعض المتصوفة في حبهم للنبي ووصفهم له، ولكن هذا لا يعني أن رسول الله صار خرافة، وأما بالنسبة للتشريع فالفقهاء على حق في اتباع السنة، وقد قدم الإمام أحمد وأبو حنيفة وكثير من الأئمة الحديث الضعيف على رأي الرجال.

سابعا: الموقف من علوم الحديث:

مثلما وقع الرفض لعلوم القرآن وجدنا صيحات لرفض علوم السنة، بل لرفض السنة نفسها، يقول أحدهم في معرض حديثه عن تيار النقل: (هذا التيار نتج عنه أمران في منتهى الخطورة:

1- وضع حياة النبـــي صلى الله عليه وسلم في عالم المطلق، بينما كانت حياته منسوبة إلى شبه جزيرة العرب في القرن السابع، بكل ما أحاطها من معطيات اقتصادية واجتماعية وسياسية.

2- الإصرار على أن أوامر النبـــي ونواهيه هي وحي، وأن السنة هي وحي، والوحي دائما من الله، والله مطلق، علما بأن طاعة النبـــي متصلة بطاعة الله في الحدود: حدود الله والعبادات والأخلاق: الصراط المستقيم فقط.

هذان السببان نتج عنهما أننا وقعنا في عمق المزلق المسيحي دون أن ندري، حيث إن الديانة المسيحية مرتبطة بشخص المسيح حصرا، وقد كان كلام المسيح عندهم هو كلام الله، لذا فإننا نرى

---

[168] – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (572).

[169] – سورة الأحزاب، الآية (21).

أن كل الأناجيل على اختلاف أنواعها عبارة عن السيرة الذاتية للسيد المسيح، والأحاديث هي السيرة الذاتية للسيد النبـــي صلى الله عليه وسلم، فكما أن هنالك عدة أناجيل، فهناك عدة كتب للحديث، فلماذا نعيب على المسيحيين أن لديهم عدة نسخ للأناجيل، ولا نعيب هذا على أنفسنا في الحديث، تقوم المسيحية على تأييد المسيح، فشعائرهم الدينية مرتبطة بشخصية المسيح، عيد الميلاد، عيد الفصح، حتى القداس هو الحضور الحي للمسيح، فالمسيح بذاته هو الشهادة الإلهية لا الإنجيل، أما عندنا نحن المسلمين فالشهادة الإلهية هي الكتاب المنزل وليس شخصية النبـــي، ولكن بمفهوم السنة التقليدي الموروث أصبح محمد صلى الله عليه وسلم هو الشهادة الإلهية إلى جانب الكتاب، بل أصبح فعليا الحديث النبوي هو المعتمد عليه أكثر من الكتاب في بعض الأحيان).[170]

وهذا الكلام فيه مجموعة من الأغاليط، فمقارنة الأناجيل بكتب الســـــنة لا وجه له، وإنما ينبغي أن تقارن بالقرآن، فإن الله بين أنه هو الذي أنزل الإنجيل، قال تعالى: (نزل عليك الكتاب بالحق وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان)[171]، فهنالك إنجيل منزل من السماء، وهو يقابل القرآن الذي عندنا، فإذا كان الإنجيل الموجود حاليا هو السيرة الذاتية للسيد المسيح، وهي مجموعة أناجيل، فهذا يعني أن الإنجيل الذي نزل من السماء قد ضاع، وإذا كانت هي ذاتها ما نزل من السماء، فلماذا هي عدة كتب وليست كتابا واحدا كالقرآن؟. وهذا يعني أن المقارنة بين الأناجيل وكتب السنة قائمة على قياس غير سليم من أساسه، ثم إن السنة ليست مقدمة على القرآن كما ذكرنا، بل هي شرح وتوضيح وتفصيل لـــه، وهي تختلف عن القرآن وإن كانت وحيا، وذلك أن ألفاظها من عند النبـــي صلى الله عليه وسلم ولذلك تلاوتها غير متعبد بها كالقرآن، كما أنه ليس كل ما صدر عن النبـــي صلى الله عليه وسلم في أموره الخاصة، أو حياته العامة، هو وحي من الله أو داخل في السنة عند بعض العلماء، فكلام الرسول صلى الله عليه وسلم على قسمين: منه ما سبيله تبليغ الرسالة، وهذا مستنده الوحي، ومنه ما ليس من باب تبليغ الرسالة، ومستنده التجربة، فمنه الطب وحديث أم زرع وغيره.[172]

---

[170] – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (568-569).

[171] – سورة آل عمران، الآيتان (3-4).

[172] – انظر: حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، (128/1).

يبقى أن نشير إلى أن كثرة كتب السنة ظاهرة إيجابية، لأن ورود الحديث في أكثر من كتاب، ولدى أكثر من راو، يعزز مكانته، ويفتح المجال أمام العلماء للتحسين والتضعيف، والقبول والرفض، بخلاف ما لو كانت السنة ومحصورة في كتاب واحد، فذاك سيقلل فرص الاجتهاد، ويلزم الناس بنص واحد، ربما نقل بالمعنى، أو دب إليه التحريف. إنه لمن حسن طالع هذه الأمة أنها لا تخضع إلى رأي مجتهد واحد، أو راوية واحد لكتب السنة، أو جامع واحد لهذه الكتب، فالتعددية هي روح هذه الأمة، وهي مجال خصب لحرية الفكر، وتنوع المناهج، وتعزيز الاجتهاد، كما أن اتفاق عدة رواة في كتب مختلفة على متن حديث واحد، يؤكد صحة الحديث، ويزيد من توثيقه علميا.

وموقف الكاتب من السنة ومن شخص النبي صلى الله عليه وسلم شبيه بموقف سلمان رشدي، ولا يـــبعد أن يكون مستوحى من موقف سلمان رشدي الذي يقول: (لم يكن ــ أي محمد – إلا رسولا، والرسالة هي التي يجب أن تبجل)[173]، ويضيف: (ولكن في أيامنا هذه استولت على الإسلام طائفة متسلطة من رجال الدين، وهم الآن شرطة الفكر المعاصرون، وقد حولوا محمدا إلى كائن كامل الأوصاف، وحياته إلى حياة مثالية، ووحيه إلى حدث جلي لا لبس فيه، وهو ما لم يكن عليه أصلا، وأقيمت محرمات صارمة، ولم يعد في وسع المرء محمدا بشرا له فضائل البشرية، ونقاط ضعف البشرية)[174]. وهذا مما يدل على أن ترديد الشبهات حول النبي عليه السلام والسنة النبوية الشريفة إنما هي دعوة استشراقية خطيرة، يراد من ورائها نقض الدين الحنيف.

---

[173] – ما بعد ذهنية التحريم، صادق جلال العظم، ص (309).

[174] – ما بعد ذهنية التحريم، صادق جلال العظم، ص (309-310).

المبحث الثالث:

الموقف من الإجماع

الإجماع عند علماء الأصول: (هو اتفاق مجتهدي أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد وفاته في عصر من العصور على حكم شرعي في واقعة من الوقائع)[175].

والإجماع أحد مصادر الدين، وهو (حق مقطوع به في دين الله عز وجل، وأصل عظيم من أصول الدين، ومصدر من مصادر تشريعنا الخالد، بعد كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولذلك كان على المسلم أن يعرف حتما مسائله، ليعمل بها، وليس له أن يثني عطفه، ويزعم أنه يستطيع أن يتعداه ويعمل الرأي والفكر. قال عبد الله بن مسعود: إذا سئل أحدكم فلينظر في كتاب الله، فإن لم يجد ففي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن لم يجد فلينظر فيما اجتمع عليه المسلمون، وإلا فليجتهد).[176]

وقد أنكر الإجماع النظام وبعض الشيعة وبعض المعتزلة[177]، ونقل عن أحمد إنكاره، وقد أجاب حول حجيته الإمام ابن تيمية، حيث قال: (من ادعى الإجماع في الأمور الخفية، بمعنى أنه يعلم عدم التنازع، فقد قفا ما ليس له به علم، وهؤلاء الذين أنكر عليهم أحمد، وأما من احتج بالإجماع بمعنى عدم العلم بالمنازع فقد اتبع سبيل الأئمة، وهذا هو الإجماع الذي كانوا يحتجون به).[178]

أما الكتاب المجددون فقد رفضوا حجية الإجماع، فهو مفهوم لا يعتد به عندهم، يقول أحدهم: (إن المفهوم الموروث بأن الإجماع هو ما أجمع عليه السلف أو جمهور الفقهاء هو مفهوم وهمي).[179]

---

[175] – موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي، سعدي أبو جيب، ص (21).

[176] – موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي، سعدي أبو جيب، (19/1).

[177] – موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي، سعدي أبو جيب، (28/1).

[178] – موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي، سعدي أبو جيب، (29/1).

[179] – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (582).

وفي الإطار ذاته يقول كاتب آخر: (الإجماع الأصولي في مفهومه التقليدي لا يعتمده إلا فئة العلماء المتخصصين، والأكاديميين في دراسات الكتاب والسنة، مما يجعله لو تحقق قضية نظرية لا تستجيب بالضرورة لحاجات الناس، ولا تخاطب عقولهم ولا تتحرك بهم ...فالإجماع الأصولي هو مفهوم نظري بحت لا يمثل في الحقيقة مصدرا علميا يعتد به، ولا أسلوبا حقيقيا للعطاء الإسلامي الاجتماعي والسياسي والحركي).180

ونسف الإجماع هو هدم لركن من أركان الدين الحنيف، فإذا هدمت الدراسات القرآنية والسنة النبوية وإجماع الأمة ماذا يبقى من الإسلام؟ هل يعقل أن المسلمين لم يتفقوا على شيء من أحكام دينهم أو يجمعوا عليه منذ وفاة النبـــي صلى الله عليه وسلم وحتى اليوم؟ وإذاً كيف استمر الدين وتواصل السلف مع الخلف إذا كانت هذه الأمة لا تجتمع على شيء؟! والأمة التي لا يجتمع فقهاؤها على شيء تستحق الموت وليس البقاء إلى قيام الساعة. إن فرية عدم وجود الإجماع لا دليل عليها.

180- أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، ص(78).

المبحث الرابع:

الموقف من القيـــــاس

القياس في اصطلاح الأصوليين والفقهاء: (هو إلحاق معلوم بمعلوم في الحق الشرعي إثباتا أو نفيا للاشتراك في العلة).181

وقد رفض القياس النظام والقاساني والنهرواني وداود الظاهري وابن حزم، (وأثبته الجمهور وأكثر الفرق الإسلامية)182، (وقد استدل المانعون بآيات قرآنية بعيدة كل البعد عن الموضوع، منها قوله تعالى: [ما فرطنا في الكتاب من شيء]183، وقوله تعالى: [تبيانا لكل شيء]184 [وأن احكم بينهم بما أنزل الله]185 [وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون]186 [ولا تقف ما ليس لك به علم]187 [إن الظن لا يغني من الحق شيئا]188، [إن بعض الظن إثم]189. والجواب أن الواقع أيام الصحابة حدثت فيه قضايا لم ينص عليها القرآن ولا السنة، مثل قضية الجد والأخ، والعول، والمبتوتة، وقول الزوج أنت علي حرام، وقضى فيها الصحابة بحكم الله، معتمدين على الاستنباط من الكتاب والسنة، ولا تزال الحوادث تتجدد، ونجد لها استنباطا من القرآن والسنة، بطريق القياس

---

181 – المصفى في أصول الفقه، أحمد الوزير، ص (325).

182 – المصفى في أصول الفقه، أحمد الوزير، ص (326-327).

183 – سورة الأنعام، الآية (31).

184 – النحل، الآية (89).

185 – سورة المائدة، الآية (49).

186 – سورة الأعراف، الآية (33).

187 – سورة الإسراء، الآية (36).

188 – سورة يونس، الآية (36).

189 – سورة الحجرات، الآية (12).

والاجتهاد، فالتشريع الإسلامي قابل للتطور، وهذا الجمود على ظواهر الآيات لا يتفق مع جوهر التشريع الإسلامي).190

وقد رفض الكتاب المحدثون القياس، فيرى أحد الكتاب المحدثين أن القياس لم يعد مناسبا لهذا العصر، يقول: (والقياس هو الأصل الأساسي الرابع ... ومنذ اتسعت رقعة أرض الإسلام، وتعددت شعوبه في عهد الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه، ومع مضي القرون والحقب وتغير الأحوال والإمكانات والحاجات والتحديات، فإن التغير في كثير من الحالات ليس تغيرا جزئيا، وإنما هو تغيير في بعض جوانبه واسع شامل، إن من المهم أن ندرك أن القياس الجزئي لم يعد مناسبا للدراسة والنظر في كثير من الحوادث والتغيرات).191

ويرى كاتب آخر أن القياس باطل، يقول:(إن قياس الشاهد على الغائب هو قياس باطل ومححف، فلا يصح أن نقيس أي مجتمع معاصر على المجتمع الذي عاش فيه النبـــي صلى الله عليه وسلم وإلا فإننا نقع في الوهم، أما القياس الحقيقي فهو قياس الشاهد على الشاهد ضمن الحدود).192

ويرى كاتب ثالث أن القياس تعبير عن سذاجة الفقهاء، يقول: (..فإنه يصور سذاجة الفقهاء، وهي سذاجة لم يكن منها مناص بحكم عصرهم وعهدهم، وبساطة المعيشة ومحدودية المجتمع وثبوتيته، ولهذا ظهر أن القياس لا يكفي، وأن الفقهاء خالفوا الأصل الذي أقره الرسول، والذي يقوم على العقل وإعمال الذهن، وجاء في حديث معاذ المشهور: اجتهد ولا آلوا، في حين أن القياس مقيد بالعلة التي جعلته قميص كتاف للاجتهاد، وحتى لو استبعدنا القصور الذي يتعرض له هذا المنهج نتيجة لتطور الأوضاع، فإن سلامته أيام الرسول لا تستتبع سلامته بعدها).193

وموقف هؤلاء من القياس لا يسانده أي دليل علمي، فهو كلام إنشائي يعوزه الدليل والبرهان، والقياس في حقيقته محاكاة قضية لأخرى، وإلحاقها بها، والمحاكاة لا يمكن الاستغناء عنها أبدا، فالأدب كما عرفه أرسطو هو محاكاة للواقع والطبيعة، والتربية للأطفال لا تكون إلا من طريق

---

190 – المصفى في أصول الفقه، أحمد الوزير، ص (325).

191 – أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، ص(79).

192 – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص (581).

193 – ما بعد الإخوان، جمال البنا، ص (109).

المحاكاة، والمسرح بحد ذاته محاكاة للواقع، فالمحاكاة لا غنى عنها إطلاقا لا في العلوم ولا الفنون، وهي أساس فكرة القياس، مما يعني أن القياس لا يمكن الاستغناء عنه البتة، وهو إحدى أدوات التفكير الهامة، وأسلوب عظيم لاستنباط الأحكام، فالحوادث يشبه بعضها بعضا، ومن هنا قالوا: (لا جديد تحت الشمس).

أخيرا: إن الفقهاء عندما يقررون العودة إلى الأصول الأربعة أداتهم في هذا كله العقل وليس مجرد النقل، فالعقل وطريقة التفكير عند كل واحد منهم جعلتهم يستنبطون من الآية الواحدة أو الدليل الواحد أحكاما مختلفة، ولذلك تباينت المذاهب والأحكام الفقهية، فليست العودة إلى الأصول لغرض تعطيل العقل لحساب النص الشرعي، وإنما لاستنباط الحكم الشرعي الذي يتناسب مع الحالة الواقعة في ضوء فهم النص.

خـــــــــاتمة:

رأينا من خلال هذا البحث أن إثارة الشبهات المعاصرة حول مصادر التشريع الإسلامي تبدأ حول القرآن وعلومه وإعجازه وتفسيره، ثم تنتقل لتشكك بالسنة وعلومها وتدوينها وحجيتها، ثم تسقط الإجماع والقياس بدعوى عدم ملائمتهما لعصرنا، مما ينسف التشريع الإسلامي من جذوره، ويقوض بناء الدين الحنيف، ويضعنا أمام بدع وأفكار جديدة تخالف الدين الحنيف، وما أنزل الله فيها من سلطان، فحري بالعاقل أن يتوخى السلامة لدينه، وأن لا يتقبل ما يثار حول مصادر دينه من شبهات، فأصل الدين بالاتباع لا بالابتداع، والمناهج الضالة عن الصراط المستقيم ليست هي التي ترفض النص المقدس مطلقا، بل أيضا تلك التي تقبله ظاهريا، ولكن تعطيه مدلولا يغاير ما تعرفه لغة العرب، أو ما تعارف عليه الناس في السلف الأول، ومن روادها الفلاسفة، يقول الإمام ابن تيمية: (وباطنية الفلاسفة يفسرون الملائكة والشياطين بقوى النفس، وما وعد الناس به في الآخرة بأمثال مضروبة لتفهيم ما يقوم بالنفس بعد الموت من اللذة والألم، لا بإثبات حقائق منفصلة يتنعم بها ويتألم بها، وقد وقع في هذا الباب في كلام كثير من متأخري الصوفية، ما لم يوجد مثله من أئمتهم ومتقدميهم، كما وقع في كلام كثير من متأخري أهل الكلام والنظر من ذلك ما لا يوجد

من عن أئمتهم ومتقدميهم، وهؤلاء المتأخرون مع ضلالهم وجهلهم يدعون أنهم أعرف من سلف الأمة ومتقدميها، حتى آل بهم الأمر إلى أن جعلوا الوجود واحدا كما فعل ابن عربي صاحب الفصوص وأمثاله، فإنهم دخلوا من هذا الباب حتى خرجوا من كل عقل ودين، وهم يدعون مع ذلك أن الشيوخ المتقدمين كالجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، وإبراهيم الخواص، وغيرهم، ماتوا وما عرفوا التوحيد).194

ويضيف قائلا: (فعلى المسلم الاعتصام بالكتاب والسنة، وأن يجتهد في أن يعرف ما أخبر به الرسول وأمر به علما يقينيا، وحينئذ فلا يدع المحكم للمشتبه المجهول، فإن مثال ذلك مثل من كان سائرا إلى مكة في طريق معروفة، لا شك أنها توصله إلى مكة، إذا سلكها، فعدل عنها إلى طريق مجهولة لا يعرفها ولا يعرف منتهاها، وهذا مثال من عدل عن الكتاب والسنة إلى كلام من لا يدري هل يوافق الكتاب والسنة أو يخالف ذلك).195

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

194 – مجموع فتاوى ابن تيمية، (13/238-239).

195 – مجموع فتاوى ابن تيمية، (13/258-259).

المصادر والمراجع:

- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت، 1973م.
- أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية، 1412هـ/1992م.
- أساس البلاغة للزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت.
- إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين درويش، دار اليمامة، الطبعة السادسة، 1419هـ/1999م.
- الإنسان ذلك المخلوق العجيب، د. سمير يحيى الجمال، مكتبة المدبولي، القاهرة.
- البحر المحيط، لأبي حيان، بعناية زهير جعيد، دار الفكر، 1412هـ/1992م.
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، خرج أحاديثه مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، 1408هـ /1988م.
- بروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم التلمود، شوقي عبد الناصر، ط3.
- التحريف المعاصر في الدين تسلل في الأنفاق بعد السقوط في الأعماق، عبد الرحمن الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1418هـ/1997م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الخير، بيروت، ط1، 1410هـ/1990م.
- حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، دار المعرفة، بيروت.
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، دارنهضة مصر، القاهرة.
- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة، 1983م.
- ديوان عنترة، دار صادر، بيروت. الطبعة الأولى، 1412هـ/1992م.

- رسالة الغفران، تحقيق: د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، الطبعة السابعة.
- روح المعاني، للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1405هـ/1985م.
- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثانية، 1398هـ/1978م.
- سيدنا محمد رسول الله، شمائله الحميدة وخصاله المجيدة، عبد الله سراج الدين، مطابع الأصيل، حلب، الطبعة الرابعة 1405هـ /1985م.
- العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، دار المسيرة، بيروت
- العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ناصيف اليازجي، دار الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م.
- العقيدة والسياسة: معالم نظرية عامة للدولة الإسلامية، د. لؤي صافي، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، ط1، 1416هـ/1996م.
- الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، الدكتور المهندس محمد شحرور، توزيع الأهالي للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 1990م.
- ما بعد الإخوان المسلمين، جمـــــال البنا، الناشر دار الفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م.
- ما بعد ذهنية التحريم، صادق جلال العظم، دار المدى، دمشق، الطبعة الأولى، 1997م.
- مجموع فتاوى ابن تيمية، الطبعة الأولى، 1398هـ.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مع آخرين، المكتبة العصرية، صيدا، 1986م.

- المصفى في أصول الفقه، أحمد الوزير، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ/1996م.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، 1418هـ/1997م.
- موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي، سعدي أبو جيب، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر.

الدوريات:

- مجلة إسلامية المعرفة، العدد 19، شتاء 1420هـ/1999م.
- مجلة إسلامية المعرفة، العدد (11) شتاء 1998م.